أجاثا كريستي

المَوْت في وَكْر الغُراب

دار النجمة للنشر والتوزيع

المَوت في وَكْر الغُراب

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

المَوت في وَكْر الغُراب

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأول

جلس السيد سوتر في شرفة فيلا «وكر الغراب» القائمة فوق صخرة عالية تُشرِف على ميناء لوموث، وراح يراقب مضيفه السير تشارلز كارترايت صاحب الفيلا وهو يرتقي الطريق المتعرج المؤدي إليها من ناحية البحر. وما لبث السيد سوتر أن سمع صوتاً فوق الشرفة عن كثب منه، فأدار رأسه وشاهد السير بارثلوميو سترينغ الطبيب الكبير الأخصائي في الأمراض العصبية يتقدم ناحيته.

جذب الطبيب مقعداً وقعد قرب سوتر وتحدث إليه قائلاً: فيم تفكر يا صاحبي؟

فابتسم سوتر وقال مشيراً إلى مضيفهما وهو يتقدم جادّاً في طريقه: ما كنت أظن أن السير تشارلز سوف يرضى بالبقاء طويلاً في مثل هذا المنفى.

فضحك الطبيب وقال: ما أعجب هذه المصادفة! إن هذا عين ما كنت أفكر فيه. لقد أُتيح لي أن أعرف السير تشارلز وأتصل به منذ عهد الدراسة حين كنا معاً في جامعة أكسفورد، وهو قد اعتزل حياة المسرح منذ عامين وأعلن عن عزمه على التمتع

بالحياة الريفية الهادئة بعيداً عن ضوضاء المدن، وإشباع غرامه القديم بالبحر، ولذلك هبط إلى هذه البقعة التي توفر له فيها ما ينشد وابتنى هذه الفيلا البديعة. والحق يا سوتر أنني كنت مثلك أول الأمر، لا أعتقد أنه سيستقر طويلاً في مثل هذه الحياة.

وما كاد الطبيب يُتِمّ حديثه حتى أقبل السير تشارلز كارترايت متهلل الوجه وارتقى درجات الشرفة في خفة ونشاط، وهتف قائلاً لسوتر: كان يجدر بك أن ترافقني يا سوتر.

لكن سوتر هز رأسه إعراباً عن عدم موافقته على رأي صديقه؛ فهو لم يكن ليصمد لدوار البحر، وقد نظر من نافذة غرفة نومه في صباح هذا اليوم ورأى تلاطم أمواج البحر وحمد الله على أنه لم يُسهم بنصيب في نزهة صاحبه البحرية.

وسار السير تشارلز إلى نافذة قاعة الاستقبال فأمر بإحضار الشاي، ثم عاد إلى صديقَيه وقال يحدّث الطبيب: كان يجدر بك أن ترافقني يا توللي، أَوَلست تقضي أغلب سِنِي حياتك جالساً في عيادتك بشارع هارلي تمتدح لمرضاك هواء البحر وتصوّر لهم مقدار ما يُحدِثه في نفوسهم من التأثير والتبديل؟

فقال السير بارثلوميو: إن أبلغ ميزة في حياة الطبيب هي أنه مُعفىً من اتباع النصائح التي يقدّمها لمرضاه.

فضحك السير تشارلز وقال: هل كنتَ وحيداً في تلك النزهة البحرية؟

- كلا، فقد كان معي مساعد، أو بالأحرى كانت معي الفتاة إيغ.

- أتعني الآنسة ليتون جور؟ إنها مُلمّة ببعض الفنون البحرية، أليس كذلك؟

- الحق أنني أشعر معها بجهلي الشديد في تلك الأمور، ومع ذلك فأنا في تقدم مستمر بفضلها.

وشعر سوتر بطائفة من الخواطر تمرّ في ذهنه بسرعة، وقال لنفسه: ما أعجب هذا! إيغ ليتون جور! ربما كانت هي السر في أنه لم يملّ هذه الحياة.

واستطرد السير تشارلز قائلاً: ليس في الدنيا بأسرها شيء يماثل البحر، حيث الأمواج والشمس والهواء.

وفي تلك اللحظة أقبلت من داخل المنزل امرأة طويلة القامة دميمة الوجه، فابتدرها السير تشارلز قائلاً: طاب صباحك يا آنسة ميلراي.

- طاب صباحك يا سير تشارلز. هذه قائمة طعام العشاء، فهل تحب أن تجري فيها أي تعديل؟

فتناول السير تشارلز القائمة وراح يُجيل بصره في محتوياتها ويغمغم بأسماء الألوان التي ستقدَّم، ثم قال أخيراً: لا داعي للتعديل؛ فهي شاملة كلّ شيء، وسوف يأتي الجميع في قطار الرابعة والنصف.

- لقد أصدرتُ الأوامر اللازمة للسائق، وبهذه المناسبة أرجو أن تأذن لي بالعشاء معكم هذه الليلة يا سير تشارلز.

وما إن سمع السير تشارلز هذا الطلب الغريب حتى أصابته الدهشة، على أنه قال في لهجة المجامل: هذا من بواعث

سروري يا آنسة ميلراي، ولكن...

فراحت الآنسة ميلراي توضح غرضها في هدوء قائلة: إذا لم تأخذ بهذا الرأي يا سير تشارلز فسوف يجتمع حول المائدة ثلاثة عشر مدعواً، وأكثر الناس يتشاءمون من هذا الرقم.

وكفّت قليلاً عن الكلام لحظة ثم استطردت قائلة: أحسب أنه قد تم إعداد كل شيء، وقد أخبرتُ هولغيت أن يذهب بالسيارة لإحضار الليدي ماري وبانغتون وزوجته، فهل تُقِرّ هذه التعليمات؟

- تماماً، وهذا هو عين ما كنت أهمّ بأن أوصيك به.

فانسحبت الآنسة ميلراي وقد لاحت على سحنتها المغضنة ابتسامة تشف عن الاعتداد بالنفس، بينما قال السير تشارلز على أثر خروجها: هذه امرأة عجيبة، وقد مضى عليها في خدمتي ستة أعوام. كانت تعمل لديّ في لندن سكرتيرة، وهي الآن تقوم بدور رئيسة الخدم ببراعة وحنكة، لكنها تعتزم اعتزال الخدمة.

- وما السبب؟

- زعمت أن لها أمّاً مريضة، لكني لا أعتقد صدق هذا الزعم؛ فلا يمكن أن يكون لمثل هذا الطراز من النساء أمهات على الإطلاق.

- إنك تحمل عليها بشدة.

- أنا أهول فقط. إنها امرأة وقورة كاملة الصفات، وهي كبيرة النفع لي.

وأخلد السير تشارلز إلى الصمت قليلاً، فغيّر السير

بارثلوميو مجرى الحديث قائلاً: مَن المدعوّون هذا المساء؟

فأجاب تشارلز: أنجيلا ستكليف الممثلة ذائعة الصيت، ولويدي ديركس صاحب جياد السباق قديماً، وزوجته مديرة محل أزياء أمبروزين المعروف، وأنطونيا أستور المؤلفة المسرحية التي حازت شهرة كبيرة بروايتها الأخيرة، وأحسب أن اسمها الحقيقي ولز. وهناك من أهل البلدة القس بانغتون وزوجته، ثم الليدي ماري وابنتها إيغ، آه، لقد نسيت الشاب المدعوّ ماندرز، وهو صحفي على ما أذكر.

فقال سوتر: لكن عددهم جميعاً وفي جملتهم نحن الثلاثة اثنا عشر فقط، لا بد أن تكون أنت أو الآنسة ميلراي قد أخطأتما الحساب.

فقال السير تشارلز في لهجة اليقين: إن الآنسة ميلراي لا تخطئ أبداً، دعني أراجع ذاكرتي. نعم، أنت على صواب! لقد نسيت ذلك البلجيكي هيركيول بوارو.

فقال سوتر: الشرطيّ السرّي؟ لقد قابلتُه، وهو شخصية عجيبة حقاً.

قال الدكتور بارثلوميو: أنا لم أقابله في حياتي، لكنني سمعت عنه كثيراً. لقد اعتزل الخدمة منذ عهد قريب، وأكبر الظن أن ما سمعته عنه يدخل في باب القصص الخرافية. ومهما يكن من أمر يا تشارلز فكل ما أرجوه ألاّ تقع جريمة في هذا الاجتماع.

- وما الذي يحملك على هذا التوجس؟ أذلك لأن بين المدعوين رجلاً من رجال الشرطة السرّيين؟

- هذه نظرية أعتنقها لنفسي.

فقال سوتر: وما مضمون نظريتك يا دكتور؟

- نظريتي أن الحوادث تجري في أعقاب الناس، ولا يجري الناس في أعقاب الحوادث! ما السر في أن بعض الناس يحيون حياة حافلة، وآخرون يحيون حياة جامدة! هل يرجع هذا التفاوت إلى أثر البيئة التي يعيشون فيها؟ لا، فقد يطوف رجل ما بأطراف العالم دون أن يصيبه أقل حادث، بينما قد يسير رجل آخر في أرجاء قريته فتنهال الكوارث في أثره. وإن رجالاً من طراز ضيفك بوارو لا ينطلقون في البحث عن الجرائم بل تأتي الجرائم إليهم.

فقال سوتر: إذا صح ما تقول فقد أحسنَت الآنسة ميلراي باقتراحها مشاركتنا في الجلوس إلى المائدة، فإننا بهذا لن نكون ثلاثة عشر.

فقال السير تشارلز مازحاً: إذا كنت تصر على نظريتك يا توللي فلتقع الجريمة التي تتوجس منها، لكني أؤكد لك شيئاً واحداً: هو أنني لن أكون المجنيَّ عليه!

* * *

الفصل الثاني

جلس سوتر في القاعة الفسيحة المطلة على الشرفة، وهي بأثاثها تشبه صالة في إحدى السفن، وجعل يتأمل السيدة ديكرس وقد صبغت شعرها وعقصته بعناية فائقة، بينما راح السير تشارلز يُعِدّ العصير ويتحدث إلى أنجيلا ستكليف الممثلة ذائعة الصيت، وهي امرأة طويلة القامة تسلل الشيب إلى شعرها. ووقف الكابتن ديكرس يحادث الدكتور بارثلوميو سترينغ في شؤون الجياد والسباق، بينما جلست الآنسة ولز (أو أنطونيا أستور، المؤلفة المسرحية) إلى جانب سوتر تحدثه عما شاهدته في رحلتها إلى فرنسا، فلمّا فرغت من قصتها كان السير تشارلز يصب العصير في الكؤوس، فقال لها سوتر: ما رأيك في كأس من العصير؟

قالت الآنسة ولز: كما تشاء.

ونهض سوتر لإحضار الكأس، وفي تلك اللحظة فُتح الباب وأعلنت الخادمة تمبل قدوم الليدي ماري ليتون جور وابنتها والقس بانغتون وزوجته.

قدم سوتر كأس الشراب إلى الآنسة ولز ثم جلس قرب الليدي ماري ليتون جور، وهي متقدمة في السن تقيم مع ابنتها

في منزل صغير بالبلدة، أما ابنتها هرميون، الملقبة باسم إيغ، فهي فتاة على حظ موفور من الجاذبية والحيوية، ذات شعر فاحم السواد وعينين عسليتين وثغر يفترّ عن ابتسامة تشف عن المرح والنشاط.

وقفت تلك الفتاة تحادث أوليفر ماندرز الصحفي عقب وصوله واطّرد الحديث بينهما إلى شؤون البحر وسباق الزوارق، بينما راح رجل ضئيل الجسم عظيم الشاربين يراقبهما عن كثب. وما لبث القس ستيفن بانغتون، راعي كنيسة لوموث، أن انضم إلى الليدي ماري والسيد سوتر، وكان ذلك القس في الستين من عمره تلوح عليه أمارات الطيبة ودماثة الخلق.

وقال موجهاً حديثه إلى سوتر: الحق أننا سعداء بإقامة السير تشارلز بين ظهرانينا، وقد برهن طوال أيامه على حسن الطوية والكرم، ثم هو -إلى جانب هذا- جار لطيف المعشر، وأعتقد أن الليدي ماري تتفق معي في هذا الشأن.

فابتسمت وقالت: أنا شديدة التعلق به؛ فالمجد الذي أصابه في حياته المسرحية لم يؤثر في كرم أخلاقه.

وفي تلك اللحظة جاءت الخادمة وهي تحمل بين يديها صينية صفّت عليها أقداح العصير، فأسرعت هرميون إلى أمها وهي تقبض على كأسها وقالت تحدثها: أوصيك يا أمي بأن تتناولي كأساً من هذا العصير، كأساً واحدة.

فقالت أمها بوداعة: شكراً لك يا عزيزتي.

وقال القس وهو يضحك ضحكة رقيقة: أعتقد أنني سأتناول كأساً أنا أيضاً.

وانحنت الليدي ماري إلى سوتر وسألته قائلة: مَن تلك المرأة الشابة التي كانت تتحدث إليك حينما دخلت؟

- إنها أنطونيا أستور، المؤلفة المسرحية.

- إن مظهرها أقرب إلى الممرضات منه إلى الكاتبات.

فضحك سوتر من هذا الوصف الذي طابق الواقع. أما القس بانغتون فقد راح يقلّب بصره الضعيف في جوانب الغرفة، وما لبث أن ارتشف قليلاً من كأس العصير ثم شعر بأنه يكاد يغصّ به. ثم تناول جرعة أخرى من الشراب فتقلصت عضلات وجهه قليلاً وقال: ها هي زوجتي آتية، الواقع يا عزيزتي...

وارتفعت يده إلى حلقه دون أن يُتمّ عبارته، وجفل سوتر حين شاهد السيد بانغتون ينهض من مقعده مترنحاً وقد انقلبت سحنته وتغضّن وجهه. وما كادت الليدي ماري ترى هذا التبدّل الذي طرأ على حالة القس حتى استوت قائمة وبسطت إليه يدها في قلق وإشفاق، بينما هتفت هرميون وهي في مكانها إلى جانب الصحفي: انظر، السيد بانغتون أصيب بمرض فجائي.

وما إن سمع السير بارثلوميو ستريغ تلك العبارة حتى هُرع ناحية القس فأعانه على الوقوف وحمله إلى أريكة في أحد جوانب الغرفة، وأسرع الباقون فالتفوا حول المريض وقد ساورهم قلق شديد عليه وودوا لو يستطيعون أن يقدموا إليه يد المساعدة.

وما لبث ستريغ أن رفع قامته وهز رأسه وفاجأ الحاضرين بقوله: يؤسفني أن أقرر لكم أنه قد مات!

* * *

الفصل الثالث

انقضت ساعة ونصف الساعة على ذلك الحادث، وساد السكون بعد الهرج والاضطراب. وكانت الليدي ماري قد راحت تواسي السيدة بانغتون في محنتها، ثم صحبتها في آخر الأمر إلى بيتها. أما الآنسة ميلراي فقد أسرعت إلى الهاتف واستدعت الطبيب المحلي، فجاء على الفور وقام بواجبه في مثل تلك المناسبات.

وقُدّم للمدعوين عشاء تافه يسير، ثم انسحبوا جميعاً إلى الغرف التي أُعدّت لهم. وما كاد سوتر يهمّ بالذهاب إلى غرفته حتى أطل عليه السير تشارلز من داخل القاعة الفسيحة التي وقع بها الحادث وقال له: تعال هنا يا سوتر، أريد أن أتحدث إليك.

فذهب إليه سوتر وقد سرَت في جسده رعدة حين فكر في هذا الحادث المحزن الذي نغّص على القوم ليلتهم. كان في الغرفة -إلى جانب السير تشارلز- الطبيب بارثلوميو سترينغ، وما كاد الطبيب يرى سوتر حتى أومأ برأسه ممتدحاً ما فعله السير تشارلز، وحدثه قائلاً: أحسنتَ يا صديقي؛ فإن سوتر رجلٌ خبر الحياة، وفي وسعنا أن نعتمد على خبرته.

وجلس سوتر في مقعد بجانب الطبيب وقد ساورته دهشة يسيرة، وكان السير تشارلز يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وقد لاحت عليه أمارات التفكير العميق. وقال السير بارثلوميو: تشارلز لم يسترح إلى ما حدث... أعني إلى وفاة بانغتون المنكود.

عجب سوتر من هذه العبارة وخُيّل إليه أنها تتضمن مغزىً خاصّاً، إلا أنه قال في تحفظ واحتراس: نعم، إنه حادث محزن.

ولم يلبث السير تشارلز أن كفّ عن سيره في أرجاء الغرفة وقال يحدث الطبيب: هل شهدت من قبل أحداً يموت على ذلك النحو يا توللي؟

فأجاب الطبيب متأملاً: لا، لا يسعني أن أقرر أنني شهدت مثل تلك الحالة.

وصمت قليلاً ثم استطرد قائلاً: لكنني -مع ذلك- أذكر لك أنني لم أشهد كثيراً من حالات الوفاة، فالطبيب الأخصائي في الأمراض العصبية لا يستعجل نهاية مرضاه وإنما يُبقي عليهم جهده ويثرَى من ورائهم. على أني لا أرتاب في أن ماكدوغال، الطبيب المحلي، قد عاين غير واحدة من هذه الحالات.

- لم يُتَحْ لماكدوغال أن يشهد وفاة القس؛ فقد لفظ القس أنفاسه الأخيرة قبل قدومه، ولم يكن أمامه غير المعلومات التي أفضينا بها إليه، وقد قرر أن الوفاة نجمت عن نوبة فجائية وأن بانغتون رجل مُسِنّ لم يكن يتمتع بصحة طيبة، على أن هذا لا يكفيني.

فتدخل سوتر قائلاً: ما الذي ترمي إليه على وجه التحديد

يا سير تشارلز؟ قل لنا ماذا يريبك؟ أترتاب في وقوع جريمة قتل؟ من ذا الذي تحدثه نفسه بقتل قسّ كهل وديع؟ هذا محض خيال! أو هل هناك حادث انتحار؟ مهما يكن من أمر ففي هذه الحالة يتسع مجال الكلام والتأويل، ولا يبعد أن يفكر المرء في بعض البواعث التي قد تحمل بانغتون للقضاء على نفسه بيده.

- وما هذه البواعث؟

فهز السير بارثلوميو رأسه برفق وأجاب: كيف يُتاح لنا أن ننفُذ إلى خفايا العقل البشري؟ على أن ثمة خاطراً يجول في ذهني، ففي وسعنا أن نفترض أن بانغتون قد وقع فريسة لداء عضال أيقن أنه يستحيل البرء منه، ومثل هذا السبب قد يبعث على الانتحار؛ فقد يخطر له في مثل ذلك الظرف أن يوفر على زوجته عناء احتضاره طويل الأمد... على أن هذا الرأي لا يعدو أن يكون استنتاجاً محضاً، فليس ثمة ما يحملنا على الاعتقاد بأن بانغتون قد أراد حقاً أن يضع حداً لوجوده في هذه الدنيا.

قال السير تشارلز: أنا لم أفكر في احتمال الانتحار.

فقال بارثلوميو وهو يبتسم ثانية: أجل، ما رأيك ألاّ تبحث عن الظواهر غير العادية، ولعلك ترمي إلى القول بأنه قد دُسّ له في العصير نوع جديد من السموم يتعذر الاهتداء إلى آثاره؟

فقال السير تشارلز: ليس هذا هو ما أرمي إليه، وعليك أن تتذكر أنني قد قمت بإعداد العصير بنفسي.

فقال الطبيب بلهجة جادة: إذن أخبرني، هل تعتقد حقاً أن هناك إنساناً يمكن أن يُقدِم على اغتيال هذا القس الوديع؟

فأجاب السير تشارلز: لا أظن، نعم، هذه فكرة مضحكة كما تقول، إنني آسف يا توللي، لكن هاتفاً خفياً يحدّثني بأن في الأمر شيئاً غير عادي.

هنا تدخل سوتر قائلاً: هل يسوغ لي أن أُدلي برأي في هذا الموضوع؟ لقد أصيب بانغتون بتلك النوبة التي قضت عليه بعد دقائق من دخوله هذه الغرفة وعقب شربه العصير، وأقرر لكما أنني شاهدت وجهه يتقلص وهو يرتشف الشراب، وقد علّلت هذه الظاهرة بغرابة طعم العصير. لكن، إذا سلّمنا جدلاً بصحة نظرية السير بارثلوميو وبأن بانغتون قد عوّل على الانتحار لسبب ما، وأنه قد قام بذلك عن طريق دس مادة قاتلة في كأسه في غفلة منا... إذا سلمنا جدلاً بصحة هذا الرأي فأقترح أن يقوم السير بارثلوميو بتحليل الكأس التي تناول منها القس شرابه، وهي لا تزال في مكانها لم تمتد إليها يد، وقد شهدته بنفسي وهو يتجرعها. نعم، في وسعنا أن نقوم بهذا البحث دون أن نثير حولنا أي لغط!

فنهض بارثلوميو وتناول الكأس وقال: كما تشاء؛ سأمشي مع هواجسك يا عزيزي إلى النهاية، على أني أراهنك بعشرة جنيهات مقابل جنيه واحد على أنني لن أعثر فيها على غير الشراب المجرد.

فقال السير تشارلز: قبلت الرهان. ثم عليك أن تتذكر يا توللي أنك مسؤول -إلى حد ما- عن هذه الوساوس التي خامرتني.

- أنا؟!

- نعم، بحديثك اليوم عن الجرائم؛ فقد قررت أن هذا الرجل المدعوّ بوارو يثير الجرائم في إثره أينما ولّى وجهه، وها أنت ترى أنه لم يكد يصل إلى هنا حتى حدثت وفاة فجائية تبعث ظروفها على الارتياب، فلا غرو إذا اتجهت أفكاري فوراً إلى احتمال وقوع جريمة.

فقال سوتر: ما أعجب هذا!

واستطرد السير تشارلز كارترايت قائلاً: نعم، لقد جال هذا بخاطري، ما قولك يا توللي؟ أيمكننا أن نستطلع رأيه في هذا الصدد؟

في تلك اللحظة سُمع نقر خفيف على الباب وأطل بوارو برأسه إلى الداخل في شيء من التردد، فهتف كارترايت وهو يقفز من مكانه: ادخل يا عزيزي، لقد كنا نتحدث عنك الآن!

- لقد خشيت أن أكون متطفلاً.

- أبداً يا عزيزي؛ تفضل بالدخول.

وما كاد الزائر يستقر في أحد المقاعد حتى عمد السير كارترايت إلى موضوع الحديث بغير تمهيد قائلاً: لن ألجأ إلى التلميح يا سيد بوارو، فقد كنا نتحدث الآن عنك وعمّا وقع الليلة. أصغِ إليّ يا صاحبي، هل تظن أن هناك شيئاً غير طبيعي؟

فقال بوارو وقد رفع حاجبيه متسائلاً: شيء غير طبيعي؟ إلامَ ترمي؟

فقال بارثلوميو سترينغ: إن صديقي يتوهم أن بانغتون قد

مات قتلاً!

فسأله بوارو: وأنت لا تشاركه هذا الرأي، أليس هذا ما ترمي إليه؟

فرد سترينغ قائلاً: إننا نحب أن نستطلع رأيك.

فقال بوارو متأملاً: نعم، لقد أصيب بنوبة مرضية بغتة، وبغير مقدمات.

- هو ما تقول.

تولى سوتر بسط نظرية الانتحار وما اقترحه من تحليل رواسب الكأس التي تناول منها القسّ شرابه، فأومأ بوارو برأسه موافقاً ثم قال: مهما يكن من أمر فليس في هذا ضير على الإطلاق، على أني أقرر -كرجل أتيح له أن يدرس الطباع البشرية- أنه يمكن أن يتهيأ من الدوافع ما يحمل على اغتيال ذلك الكهل الوديع الدمث الأخلاق، وكذلك لا أستريح إلى التعليل الذي يقول بأنه قد عمد إلى الانتحار. وعلى كلٍ فإن نتيجة التحليل سوف تكون حاسمة في هذا الشأن.

* * *

الفصل الرابع

فاجأت إيغ ليتون جور السيد سوتر على رصيف الميناء المعَدّ للصيد، ولم يجد مفرّاً من الوقوف معها ومبادلتها الحديث، فسألته قائلة: ما رأيك في وفاة القس بانغتون يا سيد سوتر؟

فأجابها قائلاً: هل نفث السير كارترايت بعض شكوكه في ذهنك؟

- لا، لقد كونت لنفسي رأياً منذ وقوع الحادث، فقد باغتنا بشكل يبعث على أشد الارتياع.

- الحق أنه كان كهلا معتلّ الصحة.

فقاطعته الفتاة قائلة: هو ما تقول، لكن هذا لا يقضي على الإنسان في طرفة عين، خاصة وأنه لم يُصَبْ في حياته بنوبات على الإطلاق. ما رأيك في شهادة الدكتور ماكدوغال؟ لقد احتمى وراء التعبيرات الطبية الاصطلاحية ولم يذكر أن الوفاة كانت نتيجة أسباب طبيعية.

فقال سوتر: عليك أن تتذكري أنه لم يتبيّن من تحليل بقايا الكأس أنها تحتوي شيئاً غير طبيعي.

- إذن فهذه النتيجة فاصلة في هذا الشأن، ومهما يكن من أمر فقد وقع شيء عقب التحليل جعلني أتساءل.

- أهو شيء حدثك به السير كارترايت؟

- إنه لم يتحدث إليّ وإنما إلى أوليفر، أوليفر ماندرز. وقد كان مدعواً للعشاء في تلك الليلة. لكن لعلك لا تتذكر هذا الشاب.

- بل أتذكره جيداً، أهو صديق حميم لك؟

- كان كذلك فيما مضى، أما الآن فإننا نتشاحن ونختلف في أغلب مقابلاتنا. لقد التحق بمصنع عمّه في لندن، وكان يتكلم كثيراً عن هجره واحتراف الصحافة، فهو يُجيد التدبيج والتحرير. لكني أعتقد الآن أنه لم يكن يعني ما يقول، إنه يريد أن يثرَى بسرعة، وقد صرت أرى الناس جميعاً يتهافتون على جمع المال أشد التهافت، وهذا ما يثير تقززي منهم. ومن أجل ذلك أحببت السيد بانغتون لقناعته وزهده في هذه الدنيا، ولعمري إنه كان وزوجته مثال الأسرة الهانئة الوادعة، ثم هناك روبين...

- روبين؟

- ابنهما الذي سافر إلى الهند حيث لقي حتفه قتلاً، وقد أسفتُ عليه كثيراً.

وأدارت عينيها ناحية البحر ثم استأنفت حديثها قائلة: في وسعك أن تقدّر إذن شعوري إزاء هذا الحادث. لنفرض أن الوفاة لم تكن طبيعية وأننا كنا على صواب.

- من تعنين بقولك «إننا»؟

فأجابت الفتاة وقد تورد وجهها قليلاً: السير كارترايت وأنا.

لم يجب سوتر، وإنما راح يفكر في الصلة التي تجمع بين السير كارترايت وتلك الفتاة، وقال لنفسه: إن كثيرات من الفتيات يتعلقن بالرجال متوسطي الأعمار ذوي الماضي الحافل، ولا يبعد أن تكون إيغ إحدى هذه الفتيات.

وسألته الفتاة فجأة: ما السر في أنه لم يتزوج أبداً؟

كان بوده أن يجيبها أن السر في هذا يرجع إلى حذر السير كارترايت من النساء، لكنه أيقن أن مثل هذا الجواب لا يقنعها؛ فقد كانت لصديقه علاقات معروفة مع الممثلات وغيرهن. وقالت الفتاة: أوَ لم يؤثَر عنه يوماً أنه كان مولَعاً بتلك الممثلة التي لا أذكر إلا أن اسمها كان يبدأ بحرف الميم والتي ماتت بالسلّ؟

وتذكر سوتر أن اسم السير كارترايت قد اقترن حقاً باسم تلك الممثلة، غير أنه لم يكن يعتقد قط أن التزام صديقه حياة العزوبية راجع إلى وفائه لذكرى تلك الممثلة، وأعرب للفتاة عن هذا الرأي فقالت إيغ: أحسّ أن السير كارترايت كانت له علاقات متعددة.

- ربما.

التزم سوتر بالصمت، فسألته الفتاة: وماذا كان رأي السيد بوارو في هذا الحديث؟ لا بد أن له رأياً.

فقال سوتر: لقد أشار علينا السيد بوارو بانتظار نتيجة

التحليل، لكنه صرح باعتقاده بعدم وجود أمر غير طبيعي.

فقالت إيغ: إنه يتقدم في السن، وقد بدأ يتلاشى من ميدان الحياة العملية.

فجفل سوتر من صراحتها بينما استطردت قائلة: أدعوك لتناول الشاي في منزلنا، فإن أمي تحبك، وقد صرحت بذلك.

فقبل سوتر هذه الدعوة. وما كادا يصلان إلى منزل الفتاة حتى تطوعت بإبلاغ السير كارترايت هاتفياً أن ضيفه مدعو لديها. وجلس سوتر مع الليدي ماري في قاعة الاستقبال وراح يتبادل معها شتّى الأحاديث، وأجاب رداً على سؤال لها قائلاً: إن صداقتي للسير تشارلز ترجع إلى عدة أعوام.

فقالت الليدي ماري باسمة: إنه شخصية جذابة ساحرة، وإيغ تشاركني هذا الشعور، والحق أن قدوم السير كارترايت إلى هنا أفاد ابنتي كثيراً؛ فقد أفسح أفق حياتها، ولا ريب أنك تعلم أن الشباب هنا قليل، ولا سيّما الرجال، ولطالما خشيت أن تتزوج ابنتي شخصاً ما لمجرد كونه أول من صادفها.

فطن سوتر على الفور إلى ما ترمي إليه فسألها قائلا: أتعنين الشاب أوليفر ماندرز؟

فاحمرّ وجهها دهشة وقالت: عجباً يا سيد سوتر! الواقع أنني -بالفعل- أقصد هذا الشاب، وهو قد اتصل بابنتي كثيراً، لكني أصارحك أنني لا أميل إلى بعض آرائه.

فقال سوتر: مهما يكن من شيء يا سيدتي فما أظنك تحبين أن تتزوج فتاتك رجلاً بضعف سنها.

فردت الليدي: بل هذا أسلم عاقبةً؛ إن طيش الإنسان وأخطاءه في مثل هذه السن تُدفَن وراءه وتغيب في الماضي، بعكس الشاب الذي يستهدف لها في كل لحظة.

في تلك اللحظة أقبلت إيغ، فقالت أمها تحدثها: أين كنت يا عزيزتي؟

أجابت إيغ: كنت أتحدث إلى السير كارترايت بالهاتف، وهو الآن بمفرده.

ونظرت إلى سوتر مؤنّبة وقالت له: إنك لم تخبرني بانصراف جميع مدعوّيه.

فقال سوتر: لقد سافروا أمس فقط ما عدا السير بارثلوميو سترينغ، وقد كان في نيته البقاء حتى الغد، غير أنه استُدعي ببرقية إلى لندن صباح اليوم حيث أُخطر بأن أحد مرضاه في حالة حرجة.

فقالت إيغ: واأسفاه! لقد كان في نيتي أن أدرس شخصيات أولئك المدعوّين جميعاً؛ إذ ربما كان يتاح لي أن أهتدي إلى أثر ما.

فسألتها أمها: أثر؟! وبماذا يتصل هذا الأثر يا عزيزتي؟

فقالت إيغ: السيد سوتر يعرف ما أرمي إليه، وعلى كل حال فإن هذا ليس بذي بال، إن أوليفر ما يزال باقياً هنا.

* * *

انصرف سوتر عائداً إلى «وكر الغراب» فألفى مضيفه جالساً في الشرفة المطلة على البحر، وما لبث كارترايت أن حيّاه قائلاً:

أهلاً بك يا عزيزي. هل كنت تتناول الشاي مع الليدي ليتون جور وابنتها؟

- نعم، ما أظن هذا يسوؤك.

- كلا بالطبع، لقد حدثتني إيغ هاتفياً، والحق أن هذه الفتاة غريبة الأطوار.

رد سوتر: إنها فتاة جذابة.

- نعم، أحسب أنها كذلك.

ثم نهض واقفاً وتمشى بضع خطوات، على أنه ما لبث أن قال فجأة في مرارة: كم أتمنى لو أنني لم أحضر قط إلى هذه البقعة اللعينة!

* * *

الفصل الخامس

ما كاد سوتر يسمع تلك العبارة حتى شعر بالرثاء لحال صديقه؛ فقد أيقن أن تشارلز كارترايت، محطم القلوب وساحر النساء، قد وقع في شرَك الحب وهو في الثانية والخمسين من عمره، ولا ريب أنه يدرك أن غرامه مقضيّ عليه بالفشل التام؛ فالشباب يألف بعضه بعضاً، ولا يمكن أن يقع اختيار الفتاة إلا على الشاب أوليفر ماندرز.

ورسخ ذلك الاعتقاد في ذهن سوتر حينما تكلمت إيغ بالهاتف بعد العشاء واستأذنت في اصطحاب أوليفر إلى الفيلا لتتحدث في بعض الشؤون.

وقال هذا الشاب أوليفر يخاطب السير كارترايت حين استقر بهما المقام: ألا يمكنك يا سيدي أن تنزع من ذهنها هذه الأوهام التي تتعلق بها؟ إنها تتصور أن ذلك الكهل قد تُوفّي وفاة غير طبيعية.

نظر سوتر إلى السير كارترايت فلاحظ تبدلاً ملحوظاً في أطواره؛ فقد استسلم للواقع ولم يحاول قط أن ينافس أوليفر ماندرز في مركزه لدى الفتاة، وإنما اضطجع في مقعده مُسنِداً

رأسه إلى الخلف بعيداً عن الضوء وجعل يراقب الشابّين وهما يتجادلان.

بدا على كارترايت في تلك اللحظة أنه تقدم في السن كثيراً، ولاحت عليه أمارات التعب والإعياء، وراحت إيغ تحتكم إليه كلما احتدم الجدل بينها وبين صاحبها، إلا أنه لم يتكلم إلا لماماً. ثم نهض الشابان لمغادرة الفيلا عند الساعة الحادية عشرة، ورافقهما السير كارترايت حتى الشرفة وعرض عليهما مصباحاً كهربائياً ينير لهما السبيل في الطريق الصخري، إلا أنهما أعلنا أنهما في غير حاجة إليه؛ فقد كانت الليلة مقمرة، وما لبثا أن ابتعدا وأخذت أصواتهما تخفت شيئاً فشيئاً.

ولم يشأ سوتر أن يُستهدف لبرد الليل؛ فدلف إلى داخل القاعة الفسيحة، بينما بقي السير كارترايت واقفاً في الشرفة بعض الوقت، ثم لم يلبث أن لحق بضيفه بعد أن أغلق النافذة خلفه، ثم دنا من مائدة قريبة وتناول قدحاً من الشراب ثم قال فجأة: سأغادر هذا المكان نهائياً في الغد يا سوتر.

فهتف سوتر في ذهول: ماذا تقول؟!

- هذا هو السبيل الوحيد... سوف أبيع تلك الفيلا.

وكفّ عن الكلام هنيهة ثم استطرد بلامبالاة: خير للمرء مادام يخسر باستمرار أن ينقذ ما يمكن إنقاذه ويكفّ عن اللعب. الشباب يجذب بعضه بعضاً، وقد خُلق هذان الشابّان أحدهما للآخر، وسأُخلي لهما الطريق.

- وإلى أين تذهب؟

- إلى أي مكان، وربما اخترت مونت كارلو.

وحيّا سوتر بإحناء رأسه ثم غادر الغرفة، ونهض سوتر من مكانه وتأهب للذهاب إلى فراشه.

* * *

في صباح اليوم التالي اعتذر السير كارترايت إلى صديقه سوتر لاضطراره للذهاب إلى لندن في ذلك اليوم، وأردف قائلاً: لا تختتم زيارتك يا صديقي العزيز، لقد قررتَ من قبل أنك ستبقى حتى الغد، وأنا أعلم أنك تعتزم الذهاب إلى أسرة هاربرتون في تافستوك بعد انتهاء زيارتك، وسوف آمر بأن تقلّك سيارتي إلى هناك. والحق أنني أرى أنه لا يجدر بي -وقد استقر قراري- أن أتردد أو أتراجع.

بسط السير تشارلز قامته وقد بدت عليه دلائل العزم الراسخ والتصميم القاطع، وصافح سوتر بحرارة وقوة، ثم أوصى به الآنسة ميلراي. واستقبلت الآنسة ميلراي قرار السير كارترايت في هدوء تام ولم تُبدِ أية دهشة أو تساؤل؛ فقد كانت تخضع للأمر الواقع وتكيّف نفسها وفق ملابساته ومستلزماته، فراحت تتصل هاتفياً بسماسرة المنازل وانهمكت في الكتابة على آلتها الكاتبة لإعداد الإجراءات المطلوبة في ذلك الشأن.

وتركها سوتر على تلك الحال وخرج للنزهة على الشاطئ وراح يتمشى دون غرض معين أو وجهة خاصة. وفيما هو كذلك جذبته يدٌ من الخلف، فالتفت ورأى نفسه وجها لوجه أمام الفتاة إيغ التي سألته في شراسة: ما سر هذا التحول؟

- أي تحول تعنين؟

- لقد ذاع في كل مكان أن كارترايت قد قرر مغادرة

هذه البلدة والارتحال إلى جهة أخرى، وأنه سوف يبيع «وكر الغراب».

- هذا صحيح.

- هل سيسافر حقاً؟

- بل سافر فعلاً.

فتأوهت إيغ وتخلّت عن ذراعه، وبدا من هيئتها كأنما أُصيبت بصدمة قوية ضعضعتها، ولم يُحِر سوتر جواباً فسألته قائلة: وإلى أين ذهب؟

- سافر إلى الخارج، إلى جنوب فرنسا.

- آه!

لم يستطع سوتر إلا أن يعزو اضطراب الفتاة إلى تعلّقها بالسير تشارلز وإعجابها بماضيه الحافل، وحاول أن يواسيها بكلمات قلائل، لكنها لم تلبث أن روّعته بهذا السؤال؛ إذ قالت في شراسة: مَن مِن هاتين المرأتين الخليعتين تظنها السبب في ذلك؟

حدق سوتر في الفتاة مذهولاً وقد فغر فاه دهشة، ولم تلبث إيغ أن قبضت على ذراعه ثانية وهزته بعنف وهي تهتف: لا بد أنك تعرف... من منهما السبب؟

- الحق يا عزيزتي... لست أفقه مغزى سؤالك، ولا أدري عمّن تتحدثين.

- بل تدري، ولا ريب في وجود امرأة ما وراء ذلك التحول

الفجائي. لقد كان يحبني، وأنا أعلم أنه كان يحبني. ولا يمكن إلا أن تكون إحدى هاتين المرأتين قد فطنت إلى ذلك في تلك الليلة التي ضمتنا جميعاً في بيته فوطّنت نفسها على انتزاعه مني. إنني أمقت النساء؛ فهن كالحرابيّ. هل هي تلك المرأة الأنيقة، أم هي المدعوة أنجيلا؟

- الحق يا فتاتي أن لك آراءً غاية في الشذوذ؛ فالسير كارترايت لا يهتم أدنى اهتمام بإحدى هاتين المرأتين.

-لست أصدقك، ومهما يكن من أمر فإنهما تبديان نحوه اهتماماً خاصاً.

- لا، لا، أنت مخطئة؛ هذه محض أوهام.

- إذن ما السر في رحيله فجأة على هذا النحو؟

- أظنه رأى من الخير أن يفعل ما فعل.

- أتعني أنه فعل هذا بسببي؟

- ربما.

- إذن فقد فطن إلى الحقيقة، وأحسب أني قد كشفت نفسي أكثر مما يجب؛ فالرجال يكرهون أن تتهافت النساء في أثرهم، أليس كذلك؟ ولا بد أن أعترف بأن أمي مُحقّة في آرائها؛ فهي لا تفتأ تقول إن الرجل يكره من المرأة أن تطارده، ويجب على الفتاة ترك مهمة المطاردة للرجل، وهذا في الواقع ما لجأ إليه تشارلز؛ فقد فر منّي. لقد أصبح يخشاني، وأسوأ ما في الأمر أنني لا أستطيع سبيلاً إلى اللحاق به.

- هرميون، أأنت جادة فيما تقولين عن كارترايت؟

- لا ريب في ذلك.

- وماذا عن أوليفر ماندرز؟

فطرحت إيغ اسم أوليفر ماندرز من موضوع الحديث بهزة من رأسها، وهنالك قال سوتر: أراك لا تدركين على وجه التحديد السبب الذي بعث السير تشارلز على الارتحال الفجائي. لقد كان يظن أنك تميلين إلى أوليفر فابتعد عنك حتى يوفر على نفسه عناء العذاب والألم.

فقالت الفتاة وهي تتفرس في وجهه: أحقاً ما تقول؟

ثم استطردت قائلة بعد قليل: إذن فسوف يعود، نعم سوف يعود، وإذا لم يعد...

- حسناً، لنفرض أنه لم يعد.

فضحكت الفتاة وقالت: سأحمله على العودة بطريقة ما، والأيام بيننا.

* * *

الفصل السادس

جلس سوتر في يوم من أيام سبتمبر في إحدى الحدائق العامة بساحل الريفيرا يستمتع بأشعة الشمس ويتصفح عدداً قديماً من جريدة الدايلي ميل يرجع تاريخه إلى يومين. وفجأة وقع بصره على عنوان أثار اضطرابه؛ إذ قرأ تحته ما يلي:

وفاة السير بارثلوميو سترينغ

ننعى إلى القراء بمزيد الأسف السير بارثلوميو سترينغ الأخصائي الكبير في الأمراض العصبية. كان الفقيد قد دعا إلى منزله في يوركشير فريقاً من أصدقائه، وكان يتجاذب أطراف الحديث مع مدعوّيه ويتناول كأساً من الشراب حين انتابته نوبة فجائية، وفاضت روحه قبل أن يتمكن القوم من استدعاء طبيب لإسعافه.

ترك سوتر الجريدة تسقط من يده وتذكّر الطبيب الفقيد كما شاهده لآخر مرة وقد كان يتمتع بصحة موفورة، وراح يستعيد في ذهنه بعض العبارات التي طالعها مثنى وثُلاث ويفكر في مدلولها: «يتناول كأساً من العصير»، «نوبة فجائية»... كانت ظروف تلك الوفاة تشبه في كثير من نواحيها ما أصاب القس بانغتون. تُرى هل مِن...؟

ورفع سوتر رأسه فشاهد السير تشارلز كارترايت يسير فوق الحشائش قادماً إليه، وما إن دنا منه حتى ابتدره قائلاً: عجباً! سوتر؟! الحق أنك ضالّتي المنشودة. أرأيت ما حل بالمسكين توللي؟

- كنت أطالع هذا النبأ في التوّ واللحظة.

فقال السير كارترايت وهو يتهالك فوق مقعد قريب من سوتر: أصغِ إليّ يا سوتر، لقد كان توللي يتمتع بصحة طيبة، فهل تحسبنيَ ممن يتعلقون بالأوهام أم يذكّرك هذا الحادث بشبيه له وقع في... في...؟

- في لوموث؟ نعم، هو ما تقول. لكن لعلنا نخطئ في هذا الظن، وقد لا تعدو هذه المشابهة أن تكون عرضية، وفوق ذلك فإن حوادث الوفاة الفجائية تقع في كل زمان وإن تنوعت الأسباب.

فأومأ السير تشارلز برأسه موافقاً ثم قال: لقد وردتني الآن رسالة من إيغ ليتون جور.

فقال سوتر وهو يحاول إخفاء ابتسامة: أهي أول رسالة تتلقاها منها؟

- لا، بل وردتني منها رسالة عقب وصولي إلى هنا، وقد تضمنتْ طائفة من الأنباء التي جدّت بعد رحيلي، على أني لم أجب عنها. الحقّ يا سوتر أني لم أجد الشجاعة الكافية للإجابة، ولا ريب أن الفتاة لم يكن يساورها شيء عن حقيقة الموقف، غير أني لم أشأ أن أتعامى عن الحقيقة وأستغفل نفسي.

فقال سوتر وهو يغالب ابتسامته: والرسالة الأخيرة؟

-تختلف عن الأولى؛ فهي شبه استغاثة وطلب للنجدة.

- استغاثة؟!

- لقد كانت في المنزل حينما وقع هذا الحادث.

- أتعني أنها كانت من ضيوف السير بارثلوميو ستريننغ حين تُوفّي؟

- نعم.

- وماذا قالت في هذا الصدد؟

فأخرج السير تشارلز رسالة من جيبه، وبعد تردد وجيز قدّمها إلى سوتر وهو يقول: خير لك أن تقرأها بنفسك.

فبسط سوتر الرسالة بشيء من التلهف وقرأ فيها ما يلي:

عزيزي السير كارترايت،

لا أدري متى تصلك هذه الرسالة، ولكني أرجو أن يتم ذلك في أقرب وقت؛ فأنا ينهبني القلق والاضطراب ولا أعلم ماذا أفعل! لعلك طالعت في الصحف نبأ وفاة السير بارثلوميو ستريننغ. لقد كانت وفاته مشابهة لوفاة السيد بانغتون، ولا يمكن أن تكون هذه المشابهة من قبيل المصادفة. نعم، لا يمكن هذا.

ألا يمكنك أن تعود إلى إنكلترا وتفعل شيئاً؟ لقد كنتَ تعرب عن بعض الريَب التي خامرتك من قبل، ولم يشأ أحد أن يصغي لأقوالك، والآن ها أنت ذا ترى أن

الذي قُتل هذه المرة هو صديقك، وإذا لم تعد فربما لا يفطن أحد إلى الحقيقة، وأنا موقنة بأنك تستطيع أن توفّق إليها.

ثم هنالك مسألة أخرى؛ فإنني شديدة القلق بسبب شخص معين، نعم، قد لا يكون له أدنى اتصال بالموضوع، ولكن الأمور تكتسب اتجاهاً خاصاً يبعث على العجب، آه! ليس بوسعي أن أفصح لك عن غرضي في رسالة ولكن هلا أتيت؟ فقد يتسنى لك الوقوف على الحقيقة، وأنا أعرف أنك على ذلك قدير.

المخلصة إيغ.

قال السير كارترايت ببعض الضّجر بعد أن فرغ صاحبه من تلاوة الرسالة: رسالة مضطربة غير متماسكة، وقد سطرتها في عجلة. ولكن ما مغزاها؟

فطوى سوتر الرسالة متمهلاً وأخلد إلى الصمت قليلاً قبل أن يجيب بقوله: ما رأيك فيمن تعنيه بقولها «شخص معين»؟

- أحسب أنها تعني ماندرز؟

- هل كان هناك هو أيضاً؟

- لا بد، ولا أعلم السبب، ولم يقابله توللي من قبل إلا في ذلك الاجتماع الذي عُقد في منزلي، ولا أستطيع أن أتصوّر السبب الذي دعا توللي إلى دعوته.

- هل اعتاد بارثلوميو أن يقيم في بيته حفلات كبيرة من ذلك النوع؟

- كان يقيم ثلاث أو أربع حفلات في العام، وقد ألِفَ أن تقع إحدى تلك الحفلات في عيد سانت ليغر.

- هل كان يقضي كثيراً من وقته في يوركشير؟

- لقد أنشأ مصحة هناك، وكان قد ابتاع قصراً قديماً يُدعى ميلفورت آبي فأصلحه وابتنى بجواره المصحة.

- ترى من كان باقي المدعوّين؟

ورأى السير كارترايت أنه يمكن معرفة ذلك بالبحث في الصحف القديمة؛ فقصدا أحد محلات بيع الصحف وأخذا يفتشان، وما لبث السير كارترايت أن قال: ها هي بغيتنا.

وراح يقرأ النبذة التالية بصوت مسموع: دعا السير بارثلوميو سترينغ إلى ضيافته فريقاً من أصدقائه بمناسبة عيد سانت ليغر، ومن بين مدعوّيه اللورد والليدي أدن والليدي ماري ليتون جور والسير غوسلين والليدي كامبل والكابتن ديكرس وزوجته والممثلة المعروفة الآنسة أنجيلا ستكليف.

وتبادل كلاهما نظرة متسائلة، ثم قال كارترايت: هناك ديكرس وزوجته وأنجيلا ستكليف، لكن لا يوجد ما يشير إلى حضور أوليفر ماندرز.

فقال سوتر: لنبحث عن ملحق الدايلي ميل الذي يُطبع هنا بتاريخ اليوم؛ فقد يتضمن شيئاً من الأنباء.

وتناول الصحيفة وألقى عليها نظرة، وما لبث أن هتف قائلاً: يا إلهي، استمع لهذا النبأ يا سوتر.

وقرأ: كان اليوم موعد التحقيق في وفاة السير بارثلوميو

سترينغ، وقد انتهى المحقق إلى أن الوفاة حدثت بالتسمم بالنيكوتين، وليس هناك ما يشير إلى من دسّ له السم.

قطب السير كارترايت جبينه عقب تلاوته هذه النبذة وقال: التسمم بالنيكوتين؟! يبدو أن هذه المادة تصرع الإنسان فوراً.

- وماذا عزمت أن تفعل؟

- سأحجز مكاناً في القطار الأزرق الذي يسافر الليلة.

- حسناً، أحسب أنني سأحذو حذوك.

- أنت؟

فقال سوتر: إن أمثال هذه الحوادث مما يدخل في نطاق هواياتي، وفوق ذلك فإن لي معرفة بالكولونيل جونسون رئيس الشرطة في تلك الجهة، وربما كان في هذا بعض الفائدة.

فهتف السير كارترايت قائلاً: أحسنت يا صاحبي. هيا بنا إلى مكتب شركة عربات النوم لنحجز مكانَينا.

* * *

دخل السير كارترايت بمفرده إلى مكتب الشركة بينما أخذ سوتر يتجول متمهلاً في حديقة أمام مبنى الشركة، وفيما هو يسير لمح رجلاً صغير الحجم جالساً فوق أحد المقاعد وهو ينظر أمامه مفكراً، وما كاد ذلك الرجل يدير رأسه حتى عرفه سوتر فهتف به قائلاً: السيد بوارو! هذه مفاجأة سارّة.

- أهلاً بك يا سيدي.

وتصافح الاثنان وجلس سوتر إلى جانبه وقال: يلوح لي

أن جميع الناس قد انتقلوا إلى مونت كارلو؛ لقد قابلت السير كارترايت منذ أقل من نصف الساعة، وها أنذا الآن أقابلك.

- السير كارترايت؟ أهو هنا كذلك؟

- نعم، منهمك في الرياضة البحرية وسباق الزوارق. هل علمت أنه باع منزله في لوموث؟

- آه، لا، لم أعلم بذلك. هذا نبأ يدعو إلى الدهشة.

فقال سوتر: إذا كان هذه النبأ يدهشك فإنه لا يدهشني؛ فليس السير كارترايت بالرجل الذي يرضى أن يعيش إلى الأبد بمعزل عن العالم.

- هو ما تقول، وأنا أتفق معك في هذا الصدد، على أن دهشتي ترجع إلى اعتبار آخر؛ لقد كان يلوح لي وجود دافع معين يحمل السير كارترايت على البقاء في لوموث، وهو دافع شديد الطرافة. ما رأيك في تلك الفتاة التي تُدعى إيغ؟

- آه، إذن فلم يفتْك أن تلاحظ هذه الظاهرة.

فقال بوارو: لا جدال في أني لاحظتها. أنا أعطف -من كل قلبي- على العشاق، وأحسبك تستجيب لهذا الشعور مثلي، وفوق ذلك فالشباب يجتذب النفوس ويأسرها.

- أعتقد أنك أصبت في تحديد السبب الذي حمل السير تشارلز على مغادرة لوموث. في الواقع لقد فرّ منها فراراً.

- من الآنسة إيغ؟ لكن من الجليّ أنه يهيم بها جداً، فلِمَ إذن يفر منها؟!

فأجاب سوتر: آه، أنت لا تدرك طبائعنا نحن الإنكليز.

فقال بوارو وهو يعلّل تلك المسألة بطريقته الخاصة: لا ريب أنه يعرف طريقه، فالمثل يقول «اهرب من المرأة تتبعك على الأثر»، ولا ريب أن السير كارترايت يعرف هذا حق المعرفة وهو الرجل الخبير بالنساء.

- لا أحسب أن هذه هي الحقيقة بحذافيرها. ولكن أخبرني، ماذا تفعل هنا؟ أتقضي إجازة؟

- لقد أصبحتْ حياتي الآن إجازة متصلة؛ لقد نجحت في حياتي وأنا الآن موسر؛ فاعتزلت الخدمة ولا يشغلني غير الطواف بمختلف البلاد.

وما لبث سوتر بعد شيء من التردّد أن بسط الصحيفة التي كانت لا تزال معه وأشار إلى النبذة التي وردت بها عن وفاة السير بارثلوميو وقال: هل اطّلعت على هذا النبأ يا سيد بوارو؟

وقرأ بوارو النبذة مرتين ثم طوى الصحيفة وأعادها إلى سوتر قائلاً: هذه مسألة جديرة بالاهتمام.

- هو ما تقول، ويبدو لنا الآن أن السير تشارلز كان مُحِقاً فيما ذهب إليه يوم وفاة بانغتون، وأننا بعدنا عن الصواب.

فقال بوارو: نعم، يبدو أننا بعدنا عن الصواب، وأُقرّ لك يا صاحبي أنني لم أستطع أن أصدق أن مثل ذلك الكهل الوديع يمكن أن يُقتل، على أنه لا يبعد أن أكون قد أخطأت في ظني. ترى أين السير تشارلز الآن؟

- إنه في مكتب شركة عربات النوم، وقد اعتزمنا كلانا أن

نعود إلى إنكلترا الليلة.

- حقاً؟ إن السير تشارلز رجل شديد النشاط. إذن فقد اعتزم أن يقوم بدور الشرطي الهاوي. هل هناك دافع آخر؟

فلم يُجب سوتر ذلك السؤال، على أن بوارو قد استخلص من سكوته الجواب المنشود؛ إذ قال: فهمت، يبدو تأثير الآنسة ذات العينين الجميلتين جلياً في الأمر، إذن فليست الجريمة وحدها هي الدافع.

- لقد كتبتُ إليه وطلبت منه أن يعود.

فأومأ بوارو برأسه ثم أخلد إلى الصمت، وهم سوتر بالكلام إلا أنه تردد ثم استوى قائماً، وعبثاً حاول سوتر أن يستدرج بوارو إلى الاهتمام بموضوع الحديث، فقال آخر الأمر: أتمنّى لك وقتاً هنيئاً.

- شكراً لك.

وأخرج سوتر بطاقة من جيبه وقال: آمل -حينما تأتي فيما بعد إلى لندن- أن تتفضل بزيارتي. هاك عنواني.

- أنت رجل كريم يا سيد سوتر، سوف يكون من بواعث غبطتي أن ألبّي دعوتك.

- إلى اللقاء إذن.

وابتعد سوتر وشيّعه بوارو ببصره ثم أشاح بوجهه واستغرق في التفكير، وبعد بضع دقائق نهض من مكانه وأخذ يسير متمهلاً مولّياً وجهه شطر مكتب شركة عربات النوم.

* * *

الفصل السابع

رحب الكولونيل جونسون رئيس دوريات الشرطة بالسيد سوتر وأبدى سروره بلقائه، كما أعرب عن ابتهاجه بالتعرف بالسير تشارلز كارترايت الممثل القديم ذائع الصيت. ولما كاشفاه بغرضهما من زيارته في مكتبه أعرب عن استعداده لإطْلاعهما على كل ما يعرف وقال: أهو صديق لكما؟ إن هذا مما يؤسَف له، والحق أن السير بارثلوميو سترينغ قد اشتهر في أثناء إقامته هنا بدماثة الخلق والبراعة الفائقة في مهنته، ونالت المصحة التي أنشأها شهرة واسعة، ويبعد -فيمن كانت هذه صفاته- أن يُقدم أحد على قتله، لكن كل الظروف تشير إلى وقوع جريمة قتل، ولا يوجد ما يشير إلى الانتحار، كما يُستبعد جداً أن تكون وفاته بالقضاء والقدر.

فقال السير تشارلز: لقد وصلتُ وصديقي سوتر من الخارج توّاً، ولم يُتَح لنا أن نقف إلا على أخبار قليلة متفرقة من الصحف.

فقال الكولونيل جونسون: طبيعي أنكما تودّان أن تقفا على كل شيء، وهأنذا أُطْلعكما على ظروف القضية. في رأيي أن رئيس الخدم هو الذي يجدر بنا أن نبحث عنه؛ فهذا الرجل قد

التحق بخدمة السير بارثلوميو منذ أسبوعين، ثم ما لبث أن اختفى عقب وقوع الجريمة، ولم نقف له على أي أثر.

- أليست لديكم فكرة ما عن مقرّه الحالي؟

- أعترف لك بأننا قد قصّرنا في هذه الناحية. نعم، لقد وُضع ذلك الرجل تحت المراقبة كغيره، وأجاب عن الأسئلة التي وُجهت إليه إجابة مُرضية، وأرشد إلى مكتب التخديم الذي ساعده على الالتحاق بخدمة السير بارثلوميو، وكان يعمل من قبل لدى السير هوراس بيرد، ولقد راح يلقي إجاباته في تأدب جمّ ولم يكن يبدو عليه ما يوجب الاشتباه في أمره. على أنه لم يلبث أن اختفى رغم أن المنزل كان موضوعاً تحت المراقبة. وقد استدعيت رجالي وحققت معهم، إلا أنهم أقسموا أنهم لم يغفلوا لحظة ولم يتهاونوا.

فقال سوتر: هذه مسألة تبعث على الدهشة.

وقال السير كارترايت وهو يفكر: الحق أن هذا تصرف يدل على الحمق؛ لقد كان هذا الرجل يعلم أن أحداً لا يشكّ فيه، وفراره على ذلك النحو يثير الشبهات ضده.

فقال الكولونيل: هو ما تقول، وأعتقد أنه لم يبقَ أمامه أمل في الإفلات؛ فقد أُذيعت أوصافه في كافة أنحاء إنكلترا ولن تنقضي أيام معدودات حتى يُقبَض عليه.

- هل قمت بتحريات للتثبت من صحة البيانات التي أدلى بها عن نفسه؟

- بالطبع يا سير تشارلز، فهذه أمور معتادة لدينا. لقد أيّد

مكتب التخديم أقوال الرجل، وكان يحمل شهادة من السير هوراس بيرد تزكّيه بشدة، ولكن السير هوراس موجود الآن في أفريقيا الشرقية.

- إذن فلا يبعد أن تكون تلك الشهادة مزيفة.

- نعم، وقد أبرقنا إلى السير هوراس بالموضوع، لكن قد يمضي بعض الوقت قبل الإجابة؛ فهو لا يستقر في منطقة معيّنة.

- ومتى اختفى ذلك الرجل؟

- صباح اليوم التالي للوفاة، وكان من بين المدعوين إلى العشاء طبيب يُدعى السير غوسلين كامبل، وقد طابق رأيه في الوفاة رأي الطبيب المحلّيّ دافيس؛ فأخطر رجالنا على الأثر. وقد استجوبنا الجميع في تلك الليلة، وذهب رئيس الخدم المدعو آرليس إلى غرفته كالمألوف، إلاّ أنه لم يكن موجوداً في الصباح، وبقي فراشه مرتَّباً كما كان، مما يدل على أنه لم يقضِ ليلته فيه.

- هل فرّ تحت جنح الظلام؟

فقال الكولونيل: هذا ما يبدو لنا، على أن إحدى المدعوّات، وهي الآنسة ستكليف الممثلة، وربما كنت تعرفها...

فقال كارترايت: أعرفها حق المعرفة.

- هذه الآنسة أبدت لنا رأياً مؤدّاه أن الرجل قد غادر المنزل عن طريق ممر سرّي، وإن كان يبدو لي في هذا الرأي شيء من

الخيال الخصب، ولكن يُستبعد حدوث ما ذكرته تلك الآنسة. وقد أضافت إلى ذلك أن السير بارثلوميو كان شديد الإعجاب بالممر المذكور، وأنه قد سار بها في داخله فوجدته ينتهي عند بناء متهدّم يبعد نحو نصف الميل عن القصر.

فقال السير كارترايت: قد يبدو هذا التفسير معقولاً، ولكن هل أُتيح لرئيس الخدم أن يعلم بوجود الممر؟

- هذا اعتراض وجيه، ولكني أعتقد أن الخدم لا يفوتهم كثير من الدخائل والأسرار.

وقال سوتر: لقد قرأت أن التسمم حدث بواسطة النيكوتين.

- هذا صحيح، وأعتقد أن هذه المادة غير مألوف استخدامها، على أني فهمت أن المرء إذا أسرف في التدخين -كما هو شأن الطبيب المتوفّى- فإن هذه المادة تعجّل بالوفاة.

- وكيف تَيسّر دَسّها؟

فقال الكولونيل جونسون: لا ندري، وهذا موضع الضعف في القضية، ويؤخذ من التقرير الطبي أن القتيل قد تناولها قبل حدوث الوفاة ببضع دقائق.

فقال كارترايت: فهمت أن المدعوين تناولوا العصير.

- هو ما تقول، وكان يلوح أن السم قد دُس له في العصير، إلاّ أنه لم يقُم دليل على ذلك؛ فقد أُجريَ تحليل الكأس التي شرب منها ولم يوجد بها غير العصير، وكانت بقية الكؤوس قد أزيلت بالطبع، غير أنها وُضعت جميعاً في المطبخ قبل تنظيفها

ولم يكن بها ما يوجب الاشتباه، وقد أكل مما أكل منه سائر المدعوين، ومضى على الطاهية في خدمته خمسة عشر عاماً. لا، يلوح لنا أن السم لا يمكن أن يكون قد دُسّ له على أي وجه من الوجوه، ومع ذلك فقد أثبت الفحص الطبيّ وجوده في جوفه. إنها قضية شديدة التعقيد.

فقال كارترايت وهو ينظر إلى سوتر: هذا عين ما حدث من قبل.

وانثنى إلى الكولونيل وقال معتذراً: يجدر بي أن أوضح لك ما أرمي إليه؛ فقد حدثت وفاة بمنزلي في مقاطعة كورنوول.

- لقد سمعت بهذا الحادث من آنسة تُدعى ليتون جور.

فقال سوتر: نعم، لقد شهدتْ هذا الحادث، فهل أخبرتك به؟

- أجل، وكانت متحمسة لنظريتها، ولكني أصارحك أنني غير مقتنع بها؛ فهي لا تفسر فرار رئيس الخدم. هل فرّ الخادم في الحادث الذي وقع لديك؟

- لم يكن خادماً بل خادمة!

- لا يمكن بالطبع أن تكون رجلاً متنكراً في زي المرأة؟

فابتسم السير كارترايت وأيضاً ابتسم جونسون معتذراً وقال: هذا مجرد رأي عارض، ولا يسعني أن أقرر أنني أستطيع أعوّل على نظرية الآنسة ليتون جور، وقد علمت أن الضحية في الحادث الأول كان قسّاً متقدم السن، فمَن ذا الذي يُقدِم على اغتيال قسّ؟

فأجاب السير تشارلز: هذا هو الجانب المحيّر في القضية.

فقال الكولونيل: أعتقد أنه سيتبيّن لك كون هذه المشابهة عرضية، ولك أن تثق بكون رئيس الخدم هو المجرم المنشود في قضيتنا هذه، وأظنه مجرماً عريقاً في الإجرام، ونحن -من سوء الحظ- لم نُوفَّق إلى بصمات أصابعه، وقد عهدنا إلى أحد الخبراء في البصمات بالتفتيش عن بصماته في غرفة نومه وفي جناح المطبخ، لكنه لم يهتدِ إلى شيء.

فسأل كارترايت: إذا كان رئيس الخدم هو القاتل، فما رأيك في الدافع إلى الجريمة؟

- هذه إحدى المصاعب التي تواجهنا؛ فقد يكون الرجل قد التحق بخدمة السير بارثلوميو بقصد السرقة، ففاجأه الطبيب واكتشف أمره.

لم يكن هذا التعليل من القوة بحيث يقنع كارترايت وسوتر؛ فلزما الصمت احتراماً لصاحبه. وقال كارترايت آخر الأمر: أحسب أنكم قد فحصتم أوراق السير بارثلوميو.

فأجاب جونسون: لا ريب في ذلك، وقد أعرنا هذا الجانب عناية خاصة، ويجدر بي أن أقدمك للمفتش كروسفيلد، مساعدي الذي يتولى التحقيق في القضية، وهو رجل يُعتمد عليه. وقد ذكرت له احتمال أن يكون لهذه الجريمة اتصال ما بمهنة السير بارثلوميو، فوافقني على هذا الرأي من فوره. والحق أن الطبيب يتاح له -عن طريق هذه المهنة- أن يطّلع على كثير من الأسرار، وقد حصرت أوراقه وتولّى كروسفيلد فحصها

بمساعدة سكرتيرة القتيل الآنسة ليندون.

- ألم تجدوا فيها شيئاً؟

- نعم يا سيد تشارلز، لم نجد ما يرشدنا إلى أدنى أثر.

- هل فُقدت أشياء من المنزل كالأواني الفضية والحليّ وما إلى ذلك؟

فقال جونسون: لا شيء على الإطلاق.

- من كان بالمنزل من المدعوين؟

- لقد أعددنا قائمة بأسمائهم، وهي الآن مع كروسفيلد، وأتوقّع قدومه بين لحظة وأخرى. ها هو قد جاء.

دخل المفتش كروسفيلد، وهو رجل جامد الوجه أزرق العينين حادّ النظر، فحيّا رئيسه الذي قدمه إلى زائرَيه. وقال كروسفيلد موجهاً حديثه إلى السير كارترايت: الحق يا سيدي أن هذه القضية غريبة؛ أنا لم أصادف في حياتي حادث تسمم بالنيكوتين، وكذلك الحال مع الدكتور دافيس.

فقال كارترايت: لقد خطر لي أن الإفراط في التدخين يسبب التسمم بالنيكوتين.

- لقد خطر لي هذا الرأي، ولكن الطبيب قرر أن المركَّب الكيميائي من هذا السم هو سائل لا لون له، وأن بضع قطرات منه تكفي للقضاء على الإنسان فوراً، ومن المعلوم أنه يُستخلص من التبغ العادي.

وسأل الكولونيل جونسون المفتش كروسفيلد: هل من

جديد يا كروسفيلد؟

– لم نظفر بشيء محدد، وقد وردتنا تقارير من أماكن متعددة ترشد إلى أثر آرليس، لكن اتضح عدم صحتها.

فسأل كارترايت: ما أوصاف ذلك الرجل؟

فأخرج جونسون ورقة من جيبه قرأ منها ما يلي: جون آرليس، متوسط الطول أسود العينين ذو شعر يتدلّى فوق عارضَيه، ينحني قليلاً في مشيته وتنقصه سنّ في فكّه الأعلى وليست له علامات خاصة تميزه.

فقال كارترايت: أأنت مقتنع يا سيد كروسفيلد بأن آرليس هو القاتل؟

فأجاب كروسفيلد: وما الذي يحمله على الفرار إذا لم يكن هو؟

والتفت كروسفيلد إلى الكولونيل وقصّ عليه الإجراءات التي اتخذها في تحقيق القضية، فوافقه الكولونيل على ما فعل ثم طلب منه أن يعطيه القائمة المتضمنة أسماء من كانوا بالمنزل ليلة الجريمة، فأخرج كروسفيلد تلك القائمة وقدمها الكولونيل للزائرَين فإذا هي تتضمن ما يلي: مارتاليكي الطاهية وبياتريس تشيرش الخادمة بالطابق العلوي ودوريس كوكر الخادمة بالطابق الأرضي وفكتوريا بال الخادمة وأليس وست الوصيفة وفيوليت باسنغتون خادمة المطبخ. وهؤلاء جميعاً كُنّ في خدمة الطبيب منذ زمن وسلوكهن حسن، وقد مضى على الطاهية وحدها خمسة عشر عاماً. وغلاديس ليندون سكرتيرة في الثانية والثلاثين من عمرها. الضيوف: اللورد والليدي أدن، والسير غوسلين

والليدي كامبل والآنسة أنجيلا ستكليف والكابتن ديكرس وزوجته والليدي ماري والآنسة هرميون ليتون جور والآنسة موريل ولز والسيد أوليفر ماندرز.

قال السير كارترايت حين فرغ من تلاوة القائمة: أرى أن الشاب ماندرز كان بين المدعوين أيضاً.

فقال كروسفيلد: كان وجوده مصادفة؛ فقد اصطدم بسيارته في جدار قريب من المنزل وعرض عليه السير بارثلوميو -وكان يعرفه معرفة يسيرة- أن يقضي الليلة عنده، ولا أستطيع أن أعلل سبب اصطدامه بالجدار على ذلك النحو إلا إذا كان ثملاً.

فقال كارترايت: مهما يكن من أمر فإنني عاجز عن شكرك. والآن هل تسمح لي ولصديقي بزيارة منزل السير بارثلوميو.

- بكل سرور يا سيدي.

- هل بقي بالمنزل أحد؟

- لا يوجد غير الخدم؛ فقد تفرّق الضيوف عقب انتهاء التحقيق، وعادت الآنسة ليندون إلى منزلها بشارع هارلي.

فسأل كارترايت: وهل نستطيع مقابلة الدكتور دافيس كذلك؟

- هذه فكرة طيبة.

ووقفا على عنوان الطبيب ثم شكرا الكولونيل جونسون وانصرفا.

* * *

الفصل الثامن

كانت بعض أجنحة قصر ميلفورت آبي يرجع تاريخها إلى القرن الخامس عشر، وقد أُضيف إليها في العهد الأخير جناح حديث بينما شُيدت المصحة بعيداً عن القصر في منطقة قائمة بذاتها. وما إن وصل السير تشارلز والسيد سوتر إلى القصر حتى استقبلتهما الطاهية السيدة ليكي، وهي امرأة بدينة ارتدت ثوب الحداد وبدت آثار الدموع في عينيها، وكانت تعرف السير تشارلز من قبل؛ فبادرته قائلة: هذه كارثة ما كنّا نتوقعها يا سيدي. لقد أخذ رجال الشرطة يترددون علينا في كل لحظة ويضيقون علينا الخناق، وقد استجوبوا الخادمات وأسرفوا في استجوابهن، ولكني أكدت لهم أنهنّ من طراز لا غبار عليه ولا يمكن أن يكون لهن ضلع في الجريمة.

وكفّت السيدة ليكي عن الكلام لحظة ثم استطردت قائلة: أما آرليس فأمره يختلف؛ أنا لا أعرف شيئاً عن هذا الرجل ولم أستطع أن أُدلي عنه بأية معلومات؛ فقد جاء من لندن وهو غريب عن هنا بينما كان بيكر في الإجازة.

فقال سوتر: بيكر؟

فقالت السيدة ليكي: كان بيكر رئيساً للخدم طوال سبعة

أعوام، وقد أمضى كلّ تلك المدة في لندن في شارع هارلي، ولا شك أن السير تشارلز يتذكره.

ولما أومأ برأسه إيجاباً استطردت قائلة: وقد اعتاد السير بارثلوميو أن يأتي به إلى هنا كلما دعا ضيوفاً، ولما كان يشعر باعتلال في صحته فقد منحه السير بارثلوميو شهرين إجازة يقضيهما في بقعة بالقرب من مشتى برايتون الجميل وتكفّل بدفع نفقاته، وهو كرم محمود من سيدي الفقيد. ثم ألحق بخدمته آرليس لمدة معينة، ولذلك لا أستطيع أن أفضي بمعلومات عن ذلك الرجل، وإن كان هو نفسه قال إنه معتاد على خدمة كبار القوم، ومن الحق أن أقرر أن هذا الوصف كان ينطبق على سلوكه.

فقال كارترايت: ألم تلاحظي في مسلكه شيئاً غير مألوف؟

- بدا لي من تصرفه شدة التحفظ، وكان يقضي معظم وقته معتكفاً في غرفته الخاصة.

فقال سوتر: ألم يخطر لك أنه قد لا يمتّ إلى مهنته بصلة؟

- الواقع أنه كان يؤدي عمله خير أداء.

- أيمكنك وصفه لنا؟

- هو رجل وقور ذو شعر أشيب يتدلّى فوق عارضيه ضعيفُ البصر ويستعمل نظارة وينحني قليلاً في مشيته.

- وكيف كان مسلكه ليلة الكارثة؟

- الواقع يا سيدي أنني كنت منهمكة في المطبخ ولم يتسنّ لي أن ألاحظ شيئاً. وما كدنا نعلم بوفاة ربّ الدار حتى صُعقنا جميعاً؛ فرحتُ أنتحب انتحاباً شديداً، وكذلك تأثرت سائر الخادمات كل التأثر، وطبيعي أن آرليس لم يبلغ منه الحزن ما بلغ منّا نظراً لحداثة عهده بيننا، إلا أنه شاركنا ألمنا وأصرّ على أن أتناول أنا وبياتريس شيئاً من الشراب حتى نستطيع أن نقوى على احتمال الصدمة. إني أكاد أنفجر غيظاً حين أفكر أنه كان في أثناء ذلك كله يخادعنا.

وأمسكت عن إتمام عبارتها وقد لمعت عيناها غضباً، فقال سوتر: هل علمتِ أنه اختفى في تلك الليلة؟

- نعم يا سيدي. لقد ذهب إلى غرفته مثلنا، فلما أقبل الصباح لم يكن له أثر، وهذا ما حمل رجال الشرطة على أن يجدّوا في أثره.

- نعم، نعم، كانت تلك حماقة منه. أليست لديك فكرة عن الطريقة التي غادر بها المنزل.

- نعم، ليست لديّ فكرة، وقد علمت أن رجال الشرطة كانوا يراقبون المنزل طوال الليل فلم يشاهدوه وهو يهرب، لكن رجال الشرطة بشر مثل كل الناس.

فقال كارترايت: سمعت شيئاً يقال عن وجود سرداب أو ممر سري.

- هذا ما يقوله رجال الشرطة.

- أتعرفين أين يبدأ هذا الممر؟

- لا يا سيدي، لا أعرف.

فقال كارترايت: تُرى هل يمكن أن نلقي بعض الأسئلة على باقي الخادمات؟

- لا ريب في ذلك، لكنهن لن يُفْضين إليك بأكثر مما قررن.

- آه، إني أقدّر ما تقولين، لكنني لا أهتم بالسؤال عن آرليس بقدر ما يهمّني أن أقف على أطوار السير بارثلوميو في تلك الليلة وما إلى ذلك، ولا شك أنك تدركين أنه كان صديقاً حميماً.

- فهمت يا سيدي، لديك بياتريس وأليس التي كانت تقوم بخدمة المدعوين في أثناء الطعام، سأنادي أولا بياتريس تشيرش خادمة الطابق العلوي.

كانت تلك الخادمة طويلة القامة تبدو عليها دلائل المهابة. وبعد أن ألقى عليها كارترايت بعض الأسئلة الثانوية انتقل إلى الكلام عن مسلك الضيوف ليلة المأساة وإن كانوا تأثروا تأثراً شديداً وعن الأفعال التي بدرت منهم والأقوال التي تفوّهوا بها؛ فقالت بياتريس: لم تستطع الآنسة ستكليف أن تحتمل الصدمة فانهارت أعصابها، وهي آنسة رقيقة المشاعر، وقد تردّدت على القصر من قبل، ولما عرضتُ عليها أن أجيئها ببعض الشراب رفضت، وإن كانت قد تناولت بعض الأسبرين.

- وعائلة ديكرس؟

فقالت بياتريس وقد اتضح من لهجتها أنها لا تميل إلى سنثيا

ديكرس: لا أحسب أن هناك ما يمكن أن يؤثر في تلك السيدة تأثيراً شديداً، وقد أبدت تلهفاً لمغادرة المنزل قائلة إن عملها في لندن يحتّم عليها العودة.

- وزوجها؟

- حاول أن يهدّئ أعصابه فأسرف في الشرب.

- والليدي ماري ليتون جور؟

- إنها سيدة لطيفة محبوبة من كل الناس، وكذلك ابنتها، ومع أنهما لم تتصلا بالسير بارثلوميو منذ عهد طويل فقد حزنتا عليه أشد الحزن.

- والآنسة ويلز؟

أجابت بياتريس وقد تصلّب وجهها: إني أعجز عن تبيين شعور الآنسة ويلز؟

ولما ألحّ عليها قالت: الحقّ أن سلوكها لم يكن متفقاً مع ما كان ينبغي، وقد صدرت منها تصرفات لا تصدر عن آنسة من الطبقة الراقية.

وحاول أن يستوضح الخادمة عن تلك التصرفات، ولكنها لم تقرر إلاّ أن الآنسة ويلز كانت تتطفل وتحشر أنفها فيما لا يعنيها، فقال سوتر آخر الأمر: جاء لديكم السيد ماندرز على غير انتظار، أليس كذلك؟

فردت بياتريس: بلى يا سيدي؛ فقد اصطدم بسيارته قرب باب المنزل الخارجي وقرر أنه من حسن حظه أن وقع له ذلك الحادث هنا، ورغم ازدحام المنزل بالضيوف فقد أعدت الآنسة

ليندون فراشاً له في غرفة المكتب.

- هل دُهش الجميع حين رأوه؟

- هذا طبيعي.

ولما سُئلت بياتريس عن رأيها في آرليس لم تستطع أن تُدلي بشيء؛ إذ لم يُتَح لها أن تتصل به كثيراً. نعم كان اختفاؤه على ذلك النحو يسيء إلى موقفه، لكنها لا تستطيع أن تدرك العوامل التي قد تدفعه إلى اغتيال السير بارثلوميو.

وقال سوتر: وكيف كان حال السير بارثلوميو في تلك الليلة؟

ردت الخادمة: كانت تبدو عليه دلائل المرح والابتهاج، بل إنني سمعته يمزح مع آرليس، وذلك ما لم يفعله قط مع سلفه بيكر.

فقال سوتر باهتمام: وكيف حدث ذلك؟

- كان آرليس قد جاء يبلغه إشارة هاتفية تلقّاها، فسأله السير بارثلوميو عمّا إذا كان قد نقل إليه الأسماء على صحتها، فلما أجابه بالإيجاب قال الطبيب ضاحكاً: "أنت رجل طيب يا آرليس، بل أنت في عملك من الطراز الأول، ما رأيك يا بياتريس؟". وأصارحك يا سيدي أنني ذهلت من اللهجة التي خاطبَنا بها السير بارثلوميو؛ لقد كانت غير مألوفة منه، ولم أستطع أن أتفوه بشيء.

- وماذا كان موقف آرليس؟

- كان مظهره يدل على عدم رضائه وكأنه لم يألف مثل

تلك المعاملة؛ فهو رجل محافظ.

فقال تشارلز: وماذا كان مضمون تلك الإشارة الهاتفية؟

- كانت صادرة من المصحّة بشأن مريضة وصلت إليها وقطعت رحلتها بسلام.

- هل تتذكرين اسمها؟

فقالت بياتريس في تردد: هو اسم غريب يا سيدي، السيدة دي رشبريدغر أو ما يشبه هذا.

- حسناً، شكراً لك يا بياتريس، يحسن بنا أن نرى أليس الآن.

ولما خرجت بياتريس قال كارترايت محدّثاً سوتر بصوت خافت: الخلاصة أن الآنسة ويلز كانت تتطفل وتحشر أنفها، والكابتن ديكرس شرب حتى ثمل، والسيدة ديكرس لم تُبدِ أقل تأثرٍ، فهل استفدنا شيئاً؟

- لا أظن.

* * *

كانت أليس في الثلاثين من عمرها، ذات شعر فاحم السواد وتميل إلى التبسط في الكلام، وقررت تلك الخادمة عدم اعتقادها بارتكاب آرليس تلك الجريمة؛ فقد كان في سلوكه أقرب إلى الرجل المهذب، وإذا كان رجال الشرطة قد ذكروا أنه من طبقة المجرمين فهي موقنة من عدم انتمائه إلى تلك الفئة بأدنى صلة. فقال تشارلز: ألا تظنين أنه قد دسّ السم لسيدك؟

- وكيف يمكن أن يفعل ذلك؟ لقد كنت أقوم معه بخدمة المائدة، ومُحال أن يدس لسيدي شيئاً في طعامه دون أن أبصره.

- وما رأيك في الشراب؟

- كان آرليس يطوف بألوان الشراب على المدعوين، ولو كان به شيء من السم لظهرت أعراضه عليهم جميعاً.

- وهل أُزيلت الكؤوس من غرفة الطعام فوق صينية؟

- نعم يا سيدي، لقد حملتُ الصينية بنفسي حيث وضع آرليس الكؤوس فوقها، وقد حملتها إلى المطبخ حيث بقيتْ في موضعها حتى رآها رجال الشرطة وتولّوا فحصها فلم يجدوا بها شيئاً.

- أأنت متأكدة أن سيدك لم يتناول شيئاً من الطعام أو الشراب لم يقربه سائر المدعوين.

- نعم، في حدود ما وقع تحت بصري.

- ألم يقدّم له أحد الضيوف شيئاً ما؟

- نعم يا سيدي.

- أتعرفين شيئاً عن وجود ممر سري؟

- أخبرني البستاني عن ذلك الممر وقال إنه ينتهي في الغابة عند بعض المباني القديمة المتهدمة، لكني لم أشاهد قط مدخله في المنزل.

- ألم يقل آرليس شيئاً عنه؟

- نعم يا سيدي، وأعتقد أنه لا يعرف شيئاً عن ذلك الممر.

- من تظنين قتل سيدك يا أليس؟

- لا أعلم، ولا أستطيع أن أصدّق أن أحداً يُقدم على تلك الفعلة، وأشعر أن هذا الحادث قد وقع قضاءً وقدراً.

قال كارترايت عقب انصراف الخادمة: لو لم تكن ثمة جريمة أخرى هي مقتل بانغتون لقلنا إن هذه الخادمة هي الجانية! إنها فتاة مليحة وقد قامت بالخدمة حول المائدة، لا، هذا لا يُجدي، لقد قتل بانغتون كذلك، وعلى أية حال فإن توللي لم يكن يُعير الفتيات المليحات اهتماماً.

قال سوتر: لكنه كان في الخامسة والخمسين من عمره.

- ماذا تعني؟

- ذلك أن الرجل في مثل تلك السن يركب رأسه ويطير صوابه من أجل فتاة، حتى ولو لم يكن له بذلك سابق عهد.

- كلام فارغ يا عزيزي، أنا شخصياً أتقدم نحو الخامسة والخمسين.

- أعرف ما تقول.

ولم يستطع كارترايت إلا أن يغضّ بصره تحت نظرة صاحبه المعنوية وتورد وجهه خجلاً.

* * *

الفصل التاسع

قال سوتر وقد أطربه ذلك التورد الذي علا وجه صاحبه: ما رأيك في تفتيش غرفة رئيس الخدم؟

فأجاب وقد وجد في ذلك السؤال مخرجاً مما اعتراه: هذا اقتراح طريف، وكان في نيتي أن أعرضه عليك.

- بالطبع فتش رجال الشرطة جوانبها تفتيشاً دقيقاً.

- الشرطة؟ إنهم قوم جامدو الرؤوس، ماذا تُراهم يلتمسون في غرفة آرليس؟ سيلتمسون الدليل على إدانته، أما نحن فسوف نلتمس الدليل على براءته، وشتان بيننا وبينهم.

- أراك شديد الاقتناع ببراءة آرليس.

- إذا صح ما نذهب إليه في حادث بانغتون فلا بد أن يكون بريئاً.

ولما دخلا إلى غرفة آرليس لم يقع نظرهما لأول وهلة على ما يملأ النفس أملاً في الحصول على أدلة؛ فقد كانت الثياب في الأدراج وفي خزانة الملابس مرتّبة بعناية تامة، وكانت الأحذية نظيفة ومرتّبة في مواضعها الخاصة.

تناول سوتر أحد تلك الأحذية فألفاه من نوع جيّد، ولما لم يكن في تلك القضية آثار أقدام فقد رأى أنها لن تجدي شيئاً، ولما تفقّدا الرداء الخاص الذي يرتديه آرليس في أثناء العمل لم يجداه، فاتضح لهما من غيابه أنه فر مرتدياً ذلك الرداء.

وقال كارترايت: من الجلي أن أيّ إنسان في تمام وعيه يخلع ذلك الرداء ويلبس ثيابه العاديّة حين يُقدِم على الفرار.

فأجاب سوتر: هو ما تقول، وهذه ظاهرة غريبة تكاد تؤكد أنه لم يفرّ على الإطلاق.

وتابعا تنقيبهما في جوانب الغرفة، فلم يهتديا إلى شيء من الرسائل أو الصحف فيما عدا قصاصة من إحدى الجرائد ونبذة تشير إلى قرب زواج ابنة أحد الدوقات، وشاهدا مجموعة صغيرة من الورق النشاف ومحبرة صغيرة بغير قلم فوق منضدة جانبية. تناول السير تشارلز الورق النشاف ورفعه أمام المرأة، ولكن بغير جدوى. قال سوتر: إما أنه لم يكتب رسائل على الإطلاق طول وجوده هنا، أو أنه لم يكن يجفّف رسائله. هذه نشافة قديمة، آه، انظر...

وأشار في شيء من الارتياح إلى حرفين باديَين بوضوح بين آثار الكتابة القديمة المختلطة هما (ل. بيكر)، ثم أردف قائلاً: في وسعي أن أقرر أن آرليس لم يستخدم هذه النشافة البتة.

وشرعا يبحثان في أرض الغرفة فرفعا البساط وفتّشا تحت السرير، لكنهما لم يهتديا إلى شيء سوى بقعة من الحبر قرب الموقد، وفيما عدا هذا كانت الغرفة خاوية خواءً يبعث على القنوط.

وغادرا الغرفة في شيء من المضض والاستياء وقد فترت حماستهما، وتبادلا بضعة أسئلة موجزة مع سائر الخادمات، إلا أنهما لم يتقدما تقدماً يُذكر، فاستأذنا وانصرفا.

* * *

كان سوتر قد أمر سائق سيارته أن ينتظرهما بالباب، وقال كارترايت وهما يسيران في الحديقة المنبسطة متجهَين إليها: ألم يخطر لك شيء ما؟

رأى سوتر أن البيانات التي وقفا عليها ضئيلة جداً لا تشير إلى شيء، وهي كما لخّصها كارترايت تشير إلى أن الآنسة ويلز كانت تتطفل وتتدخل فيما لا يعنيها، وأن الآنسة ستكليف كانت شديدة التأثر، وأن السيدة ديركس لم تُبدِ أدنى تأثر، وأن الكابتن ديكرس قد شرب حتى ثمل، وليس لكل ذلك دلالة خاصة، إلا أن يكون إسراف ديكرس في الشراب قصد به إخماد صوت الضمير المثقل بالجريمة.

لكن سوتر كان يعلم أن فريدي ديكرس يشرب حتى الثمالة في أغلب الأحوال. وما لبث أن قال مكرَهاً ردّاً على سؤال كارترايت: لا شيء، إلا إذا استخلصنا من اسم الدواء الذي شاهدناه أن آرليس يشكو من الكالو.

فابتسم ابتسامة مغتصَبة وقال: هذا استنتاج معقول، ولكن أتراه يُفضي بنا إلى الأمام؟

فأجاب سوتر بالنفي ثم أضاف إلى ذلك قوله: الملاحظة الوحيدة هي...

- تكلم يا صاحبي؛ فأية ملاحظة قد تهدينا في بحثنا.

- لقد عجبت في الواقع مما قررته الخادمة عن ممازحة السير بارثلوميو لرئيس الخدم، ويبدو لها أن تلك ظاهرة شاذة من بعض الوجوه.

فقال كارترايت بحماسة: نعم، هذه ظاهرة شاذة، لقد أُتيح لي أن أعرف توللي أكثر منك، وفي وسعي أن أقرر عدم كونه من ذلك الطراز الذي يمزح مع الخدم. أصبتَ يا عزيزي؛ فهذه مسألة جديرة بالبحث والتمحيص، ولكن إلى أين تُفضِي بنا؟

كان جلياً من لهجة السير كارترايت رغبته في أن يفضي برأيه في ذلك الصدد، فأصغى إليه سوتر وسمعه يقول: لعلك تذكر المناسبة التي وقع فيها هذا الحادث يا عزيزي، لقد وقع عقب تبليغ آرليس فحوى المخابرة الهاتفية إلى السير بارثلوميو، وفي مقدورنا أن نستخلص -في اطمئنان- أن تلك المخابرة هي السبب فيما طرأ على السير بارثلوميو من مرح فجائي غير مأثور، ولعلك تذكر كذلك سؤالي للخادمة عن فحوى تلك المخابرة.

فأومأ سوتر برأسه إيجاباً وقال: كانت تتضمن إبلاغه بوصول سيدة تُدعى السيدة دي رشبريدغر إلى المصحة، وليس في هذا النبأ ما يثير شيئاً غير عادي.

- هو ما تقول، لكن إذا صحّ استنتاجنا فلا بد من وجود مغزىً خاص لهذه المخابرة.

فقال سوتر في ارتياب: محتمَل.

فردّ كارترايت: بل لا ريب في ذلك، وعلينا أن نبحث عن

هذا المغزى، ويبدو لي أنه لا يبعد أن يكون دلالة رمزية تُصاغ في أسلوب طبيعيّ ويُراد بها شيء غير مدلولها، وإذا صح أن توللي قد أخذ على عاتقه أن يتحرّى في ظروف وفاة بانغتون، فقد يكون لتلك المخابرة اتصال بتلك التحريات. لنفرض أنه عهد إلى أحد رجال الشرطة السرّيّين أن يبحث في نقطة معينة يشتبه فيها، فلا يبعد -في تلك الحالة- أن يتفق معه إذا ثبت له صحة المسائل التي تثير اشتباهه، على أن يتصل به هاتفياً وأن يبلغه تلك العبارة التي لا تؤدّي بسامعها إلى الوقوف على شيء من الحقيقة، فإذا صح ذلك فهو يفسر لنا ما طرأ عليه من المرح والتبسّط، ويفسر لنا السبب في سؤال آرليس إن كان متأكداً من صحة الاسم، وهو يعلم علم اليقين بعدم وجود مثل ذلك الاسم على الإطلاق.

- أتعني أنه لا توجد سيدة تُدعى السيدة دي رشبريدغر؟

- مهما يكن من أمر فيَحسُن بنا أن نمحّص هذه المسألة.

فسأله: وكيف نفعل ذلك؟

فردّ كارترايت: في مقدورنا أن نذهب الآن إلى المصحة وأن نقوم بسؤال رئيسة الممرضات.

- قد يبدو لها ذلك الإجراء شاذاً.

فضحك السير كارترايت وقال: دع تلك المسألة لي؛ فسوف أسوّيها بنفسي.

انعطفا في طريق السيارات وأخذا يسيران في اتجاه المصحة. وقال سوتر في أثناء سيرهما: ما رأيك أنت يا كارترايت؟ ألم تستخلص شيئاً من زيارتنا للمنزل؟

فأجاب متئداً: بلى، لقد خطر لي خاطر معيّن، على أن الشيطان قد أنسانيه.

فنظر إليه سوتر دهِشاً، فعبس كارترايت وأكمل قائلاً: كيف أُفصِح عن غرضي؟ نعم، هناك مسألة معينة خطر لي أنها في وضع غير طبيعي، ولكن لم يُتَح لي وقت للتفكير فيها في حينها؛ فأرجأتها إلى ما بعد.

- والآن ألا تستطيع أن تقول ما هي؟

- نعم، ولا أذكر إلاّ أنني قلت لنفسي في تلك اللحظة إن هذا عجيب.

- أكان ذلك حين كنا نستجوب الخادمات؟ من منهن؟

- الحق أني لا أستطيع أن أذكر، وكلما أجهدت ذاكرتي خانني التفكير، على أني إذا تركتها وشأنها فقد تعود من تلقاء نفسها.

* * *

ولما وصلا إلى المصحة قرعا الجرس وطلبا مقابلة رئيسة الممرضات، فأقبلت عليهما امرأة طويلة القامة متوسطة العمر بادية الذكاء، واتضح أنها تعرف من اسم السير تشارلز أنه كان صديقاً للسير بارثلوميو. قال لها إنه جاء من خارج إنكلترا منذ قليل، فصُعق حينما علم بنبأ الكارثة التي حلّت بصديقه، وسمع بتلك الشبهات التي قامت لدى رجال الشرطة، وبادر من فوره بالذهاب إلى منزل الفقيد للوقوف على ما يمكنه من البيانات.

ولما ذكرت رئيسة الممرضات أنهم فُجعوا في شخص

السير بارثلوميو وفقدوا في شخصه طبيباً بارعاً، سألها عمّن سيؤول إليه أمر المصحة، فقالت: له شريكان في المصحة، وكلاهما طبيب كفء، وأحدهما يقيم هنا.

فقال كارترايت: أنا أعرف أن بارثلوميو كان يفخر بالمصحة.

- نعم، وكان موفَّقاً توفيقاً تاماً في معالجة مرضاه.

- أعتقد أن معظمهم مصابون بأمراض عصبية.

- نعم.

- إنه يذكّرني بشخص قابلته في مونت كارلو وحدثني عن قريبة له سوف تأتي إلى المصحة. لقد نسيت اسمها الآن؛ فهو اسم غريب أظنه رشبريدغر أو رشبريغر، أو شيئاً من هذا القبيل.

- لعلك تعني السيدة دي رشبريدغر.

- هو ذاك، أهي هنا الآن؟

- نعم، لكني أخشى أنه لا يُتاح لك أن تقابلها لمدة أخرى؛ فقد تَقرّر لها علاج دقيق تستريح فيه راحة تامة، وحُظر علينا أن نوافيها بأية رسائل أو أن نسمح لها بمقابلة الزائرين.

- هل حالتها خطيرة إلى هذا الحد؟

- إن أعصابها منهارة تماماً، وهي مصابة بفقدان الذاكرة وانهيار عصبي خطير، ولكني أعتقد أننا سنعيدها إلى حالها في الوقت المناسب.

- يُخيَّل إليّ أنني سمعت صديقي السير بارثلوميو يتحدث عنها؛ فقد كانت من بين صديقاته فوق صلة المعالجة التي تجمعهما، أليس كذلك؟

- لا أظن ذلك، وعلى الأقل لم يذكر لي الدكتور بارثلوميو شيئاً من هذا القبيل، وهي قد أتت حديثاً من الهند الغربية، وقدومها من هناك وليد الصدفة المحضة.

- وهل جاء زوجها أيضاً؟

- بل ما يزال باقياً هناك.

- آه، لا بد أني قد خلطت بينها وبين سيدة أخرى أحسب أن الدكتور كان مهتماً بمسألتها اهتماماً خاصاً.

- إن تلك الأعراض -مع شيوعها- تدعو إلى اهتمام رجال الطب، فقلّما تتشابه حالتان منها.

وشكرها السير تشارلز واستأذنا للانصراف ثم مشيا إلى حيث كانت السيارة تنتظرهما واستقلاها فانطلقت بهما.

واستغرق سوتر في أفكاره فرأى أن نظرية كارترايت في صدد اسم السيدة دي رشبريدغر لم تتماسك ولم تطابق الواقع، وأنه ليس وراءها رسالة رمزية كما ظن؛ فقد ثبت إن ذلك الاسم تُسمّى به سيدة لها وجود حقيقي. لكن أيمكن أن يكون ثمة دور خاص لتلك السيدة نفسها؟ هل هي شاهدة من نوع ما أم أن ما أبداه بارثلوميو من ابتهاج غير مألوف يرجع فقط إلى اهتمامه بطبيعة مرضها؟

* * *

الفصل العاشر

قطع تشارلز على سوتر حبل أفكاره؛ إذ مال إليه وقال يحدثه: هل يضيرك يا عزيزي أن نعود من حيث جئنا؟

وأصدر أمراً إلى السائق بالرجوع دون أن ينتظر الجواب، وما هي إلا دقيقة أو نحوها حتى كانت السيارة تمضي في وجهة مضادة. وقال سوتر: ماذا جرى؟

فأجابه: لقد تذكرت الآن ما نسيته وكان موضع عجبي، إنه بقعة الحبر التي رأيناها في غرفة رئيس الخدم.

فنظر إلي صديقه في دهشة قائلاً: بقعة الحبر؟! وماذا تعني يا كارترايت؟

- أتذكرها؟

- نعم، أذكر أننا رأينا بقعة من الحبر.

- أتذكر موضعها؟

- إلى حدّ ما.

- هي في موضع قريب من الموقد.

- أصبتَ، لقد تذكرتُ الآن.

- ما رأيك في كيفية حدوث تلك البقعة يا عزيزي؟

فأخلد سوتر إلى التفكير هنيهة ثم قال: ليست بالبقعة الكبيرة، ولا يمكن أن تكون قد نجمت عن انقلاب محبرة، وأكبر الظنّ أن قلماً من الأبنوس قد وقع من يد الرجل في ذلك الموضع؛ إذ لا تنس أننا لم نشاهد قلم الحبر العاديّ في المحبرة، ويتضح من ذلك أن الرجل كان يحمل قلماً من الأبنوس وإن لم يقم دليل على أنه كتب شيئاً.

قال تشارلز: بل وجود البقعة هو الدليل على كتابته.

- يُحتمَل عدم كتابته، ولا يبعد أن يكون القلم قد وقع منه فوق الأرض فحسب.

- لكن لا يمكن حدوث البقعة إلا إذا كان غطاء القلم منزوعاً.

- أصبت، لكن لا أرى في ذلك ما يدعو للعجب.

- ربما، فأنا لا أستطيع الجزم بشيء قبل تحققي بنفسي.

ووصلا إلى منزل الطبيب بعد بضع دقائق، وزعم تشارلز أنه نسي قلمه في غرفة رئيس الخدم، واستطاع بلباقة أن يتخلص من السيدة ليكي. وما كادا يخلوان إلى نفسيهما حتى أغلق السير تشارلز الباب وقال: والآن فلننظر إذا كنت أعلل نفسي بآمال كاذبة أو إن كان هناك شيء حقاً.

وجلس سوتر على حافة الفراش وقد صمت عن إبداء رأيه احتراماً للسير تشارلز، بينما قال وهو يشير إلى بقعة الحبر بقدمه: هذه هي البقعة في طرف الغرفة المواجه لمنضدة الكتابة، فما

الظروف التي يُلقي فيها المرء بالقلم في مثل هذا الوضع؟

- في مقدور الإنسان أن يُلقي بالقلم حيث يشاء.

فقال كارترايت: بالطبع يمكن إلقاؤه في أي مكان بالغرفة، لكن ليس من المألوف تصرف الإنسان على هذا النحو في قلم يملكه، على أنه لا يبعد أن يكون قد استعصى على آرليس الكتابة به فألقى به مغضباً في الغرفة.

قال سوتر: هناك طائفة من التعليلات؛ فلا يبعد كونه وضعه فوق رفّ الموقد فسقط عفواً.

فأخرج كارترايت من جيبه قلماً وقام بتجربته، فجعله يسقط من فوق رفّ الموقد، فانحدر القلم ومسّ الأرض على بُعد نحو قدم من البقعة وتدحرج إلى ناحية الموقد.

وقال سوتر: ماذا بعد؟ ما تعليلك؟

- أنا أحاول أن أهتدي إلى تعليل.

وراح تشارلز يلقي بالقلم في أوضاع مختلفة دون أن يهتدي إلى ما ينشده. وفجأة خطر له رأي وتمثّل نفسه آرليس رئيس الخدم، فجلس إلى المنضدة كأنما يكتب وهو يرفع رأسه بين وقت وآخر وينظر حوله محاذراً وكأنما وصل إلى سمعه صوت أقدام تقترب صادر من الردهة، ولما كان ضمير الرجل مثقَلاً بالجريمة فقد فطن إلى معنى خاص وراء صوت الأقدام؛ فوثب قائماً وقد أمسك في إحدى يديه بالورقة التي كان يكتب فيها وفي الأخرى قلمه، وما لبث أن أسرع ناحية الموقد وهو يلتفت برأسه محاذراً، وراح يُنصت في خوف واضطراب. ولقد حاول

أن يدسّ الورقة خلف الموقد الغازي، وإذ أراد أن يستخدم لهذا الغرض كلتا يديه فقد ألقى بالقلم في تبرّم فسقط القلم من يده فوق بقعة الحبر.

لم يتمالك سوتر أن هتف معجباً: مرحى يا صديقي.

والحقّ أن السير تشارلز أتقن تمثيل الموقف حتى إنه لا يمكن تسرب الشك إلى نفس الناظر في سقوط القلم من يد آرليس على ذلك النحو، وقال كارترايت: أرأيت؟ إذا كان ذلك الرجل قد سمع صوت رجال الشرطة -أو مَن ظنّهم كذلك- قادمين إلى ناحيته وأراد أن يُخفي ما كان يكتب، فأين يخفيه؟ إنه لم يكن ليلجأ إلى أحد الأدراج؛ إذ لا بدّ أن يهتدي رجال الشرطة إلى ذلك المخبأ إذا خطر لهم تفتيش الغرفة، فلم يكن أمامه إذن إلا موضع واحد خلف الموقد الغازي.

- الخطوة التالية إذن هي التفتيش خلف الموقد للاهتداء إلى ما أُخفي.

- هو ما تقول، من الممكن أن يكون خوفه على غير أساس فعاد ليسترجع ما أخفاه، على أننا نأمل أن نوفَّق إلى شيء.

ونزع تشارلز سترته وشمّر عن ساعدَيه ثم ركع فوق الأرض وأخذ ينظر بعينيه في الفراغ الكائن تحت الموقد الغازيّ، ثم قال آخر الأمر: هناك شيء ما أبيض اللون. كيف يمكن أن نجذبه؟ لا بدّ لنا من مشبك شعر.

فقال سوتر: جرّب استخدام المطواة.

لكن تلك التجربة لم تُسفِر عن نجاح؛ فخرج سوتر وأتى

بإبرة طويلة من بياتريس، وقد أثار هذا التصرف عجبها إلا أنها لم تجرؤ على الاستفسار.

أفلح كارترايت في محاولته وأخرج من تحت الموقد طائفة من الأوراق يدل مظهرها على أنها قد عُصرت عصراً ودُفعت دفعاً قوياً، وراح تشارلز وسوتر يبسطان الأوراق وقد تضاعف اهتمامهما، فاتضح لهما أنها مسوَّدات مختلفة لرسالة واحدة سُطرت جميعاً بخط صغير جيد. تضمنت المسوَّدة الأولى ما يلي: ليس في نية كاتب هذه الرسالة أن يُثير المتاعب، وقد يجوز أنه أخطأ فيما خُيل إليه أنه شاهده في تلك الليلة، لكن...

ويبدو أن الكاتب لم يرضَ عن ذلك الأسلوب؛ فعدل عن إكمال العبارة واستأنف الكتابة من جديد: يقدّم جون آرليس رئيس الخدم أزكى تحياته، ويسرّه أن يظفر بزيارة قصيرة تتصل بموضوع المأساة التي وقعت في تلك الليلة قبل أن يذهب إلى رجال الشرطة ويُطْلعهم على ما لديه من بيانات...

وللمرة الثانية لم يرضَ الرجل عن ذلك الأسلوب؛ فعاود الكتابة مرة ثالثة: جون آرليس رئيس الخدم يعرف معلومات معينة خاصّة بوفاة الطبيب، وهو لم يقُم حتى الآن بإطلاع رجال الشرطة على تلك المعلومات...

وفي المسوَّدة التالية تكلّم صاحب الرسالة عن نفسه بصراحة فقال: أنا في أشد الحاجة إلى المال، وأظن ألف جنيه تكفيني. أنا أعرف معلومات معينة في وسعي الإفضاء بها إلى رجال الشرطة، لكني لا أحب إثارة المتاعب.

ثم تكلّم في المسوَّدة الأخيرة بصراحة تامة فقال: أنا أعرف

كيف مات الدكتور، ولكني لم أُفْضِ بشيء إلى رجال الشرطة حتى الآن، وإذا جرت معي مقابلة...

على أن الرسالة انتهت على نحو يغاير ما سبقه؛ فقد بدا الاضطراب في تسطير كلماتها الأخيرة، مما يدل بجلاء على سماع آرليس في تلك اللحظة ما أثار مخاوفه وقلقه؛ ولذلك طبّق الصفحات بيده وهُرع لإخفائها.

وقال سوتر وهو يبعث من فمه زفيراً عميقاً: أهنئك يا كارترايت، فقد وُفّقت فيما ألهمتْك إليه غريزتك بشأن بقعة الحبر. والآن لنلقِ نظرة على موقفنا في ضوء هذا الاكتشاف الجديد.

وصمت قليلاً ثم استطرد قائلاً: آرليس رجل شرير كما رأينا من قبل، ولكنه ليس القاتل، وقد عرف شخصية القاتل الحقيقي وشرع يُعدّ العدة لتهديده وابتزاز المال منه سواء كان القاتل رجلاً أو امرأة.

فقاطعه تشارلز قائلاً: من دواعي الأسف أننا لا نستطيع الجزم بكون القاتل رجلاً أو امرأة. لست أدري لماذا لم يبدأ ذلك الخبيث إحدى مسوَّدات الرسالة بكلمة سيدي أو سيدتي حتى يُتاح لنا أن نعرف هُوِيّة القاتل. يلوح لي أن آرليس رجل شديد الدهاء؛ لقد راح يُجهد نفسه في إنشاء الرسالة ويبدي منتهى الحذر والحيطة، وليته ترك في رسالته أثراً يرشد إلى شخصية المرسَل إليه.

فقال سوتر: لا بأس؛ فنحن مع ذلك نتقدم باطّراد، ولعلك تذكر أنك قررت أن ما ننشده في هذه الغرفة هو الدليل على

براءة آرليس، وها نحن قد وُفّقنا إلى هذا الدليل، وهذه الرسائل المتشابهة تدلنا على براءته من جريمة القتل على الأقل، أما فيما عدا هذا فهو مجرم من الطراز الأول، لكنه لم يدنّس يديه باغتيال السير بارثلوميو سترينغ، وإنما اقترف هذه الجريمة شخص آخر، وهو نفس الشخص الذي اغتال بانغتون من قبله، وأحسب أنه يحسن إطْلاع رجال الشرطة على ما وُفّقنا إليه.

فقال كارترايت بشيء من الاستياء: هل في نيتك إطْلاع رجال الشرطة على هذا الاكتشاف الجديد؟

- أرى أنه لا مفر لنا من ذلك. لم هذا السؤال؟

فجلس على حافة الفراش وراح يقول: أعلم أننا نعرف في الوقت الحاليّ شيئاً لا يعرفه سوانا. رجال الشرطة يفتشون عن آرليس، وكل إنسان يعلم باعتقادهم أنه الجاني، والنتيجة الطبيعية لذلك هي شعور الجاني الحقيقي بشيء من الطمَأنينة من هذه الناحية. أليس مما يؤسَف له أن نسعى لقلب هذا الوضع بأيدينا؟ أليست هذه هي الفرصة التي يتعيّن علينا انتهازها؟ وهذه الفرصة في السعي لمعرفة الصلة بين بانغتون وأولئك الأشخاص الذين نسعى لتحديد الجاني من بينهم، والذين لا يعرفون أن هناك من يفكر في وجود أي اتصال بين هذه الوفاة ووفاة بانغتون؟ نعم، سوف يأمنون جانبنا، وهي فرصة فريدة قد لا يعرض لنا مثلها.

فقال سوتر: أنا أدرك ما ترمي إليه وأسلّم معك به. هذه فرصة فريدة، لكني لا أظن من الأفضل انتهازها وحدنا، والواجب يحتّم علينا إطلاع رجال الشرطة فوراً على هذا الاكتشاف الذي

وُفّقنا إليه، ولا حقّ لنا في الاحتفاظ به دونهم.

فرمقه تشارلز بنظرة ذات معنى وقال: أنت عنوان الفضيلة يا عزيزي، ولست أرتاب لحظة في أن الواجب يهيب بنا بأن ننزل على حكمه، لكنني لا أتمسك بمثل ما تتمسك به من المثل، ولا أرى غضاضة في الاحتفاظ لنفسي بهذا الاكتشاف يوماً أو يومين فقط. لا؟ حسناً، سوف أنزل على رأيك. فلنكن إذن عنوان الفضيلة والرضوخ للقانون.

- في وسعك أن ترى أن جونسون صديقي، وهو لم يتأخر لحظة واحدة في إطْلاعنا على كل ما يعلمه رجال الشرطة.

فأجابه وهو يتنهد: أصبت. لكنني مع ذلك أجاهر لك بأني وحدي قد خطر لي أن أُلقي نظرة تحت الموقد الغازيّ، ولم تخطر هذه الفكرة قط لأحد من رجال الشرطة. لكن ليكن ما تشاء. قل لي يا عزيزي، أين يمكن أن يكون آرليس الآن؟

فأجاب سوتر: أعتقد أنه قد ظفر بما كان يريد؛ لقد تلقى ثمن اختفائه وقد اختفى بنجاح.

فقال تشارلز: نعم، أحسب هذا هو التحليل الوحيد لاختفائه.

وسرت في جسده رعشة يسيرة وهو يقول: أنا لا أستريح إلى البقاء في هذه الغرفة يا صديقي، فلنخرج منها.

* * *

الفصل الحادي عشر

قابل كارترايت وصديقه سوتر الكولونيل جونسون والمفتش كروسفيلد مقابلة قصيرة وأطلعاهما على الاكتشاف الذي توصّلا إليه وعلى الظروف التي أدّت إلى ذلك الاكتشاف، فأعلن لهما الكولونيل جونسون على الفور عزمه على الاتصال بشرطة لوموث والتنبيه بوجوب إعادة البحث في ظروف وفاة ستيفن بانغتون.

وقال السير تشارلز لصديقه سوتر حينما كانت السيارة تنهب بهما الطريق إلى لندن: إذا ثبتت وفاة بانغتون متسمماً بالنيكوتين فسوف يقتنع كروسفيلد بوجود اتصال بين الحادثين.

على أنه مع ذلك كان يشعر بشيء من المضض لاضطراره لإطلاع رجال الشرطة على ما وُفّق إليه، لكن سوتر طمأنه بأن هذه المعلومات لن تذَاع في الصحف ولن يعلم بها أحد من أفراد الجمهور، وأردف قائلاً: ولذلك لن يرتاب الجاني في شيء، وسوف يستمر البحث عن آرليس.

وقرر السير تشارلز لصاحبه عزمه على الاتصال بالآنسة إيغ ليتون جور إثر وصولهما إلى لندن. ولما كانت رسالتها إليه قد صدرت من مكان معين في ميدان بلغريف فهو يأمل أن تكون

باقية بعدُ هناك. ولقد وافق سوتر على ذلك الرأي؛ فقد كان هو كذلك يودّ من كل قلبه أن يقابل إيغ، واتفقا على أن يتصل بها السير تشارلز هاتفياً بعد وصولهما إلى لندن.

وتبين أخيراً استمرار بقاء إيغ في لندن؛ فقد نزلت مع أمّها ضيفتين على أقرباء لهما في العاصمة، ولم يكن في نيتهما العودة إلى لوموث قبل أسبوع؛ فلم يجدا مشقّة في دعوتها إلى العشاء معهما في مطعم بيركلي.

ولاحظ سوتر حينما اجتمعا بالفتاة ظهور آثار النحول والذبول عليها، لكنها مع ذلك كانت تحتفظ بحيويتها وسحرها. قالت الفتاة موجّهة حديثها إلى السير تشارلز: كنت أعلم أنك ستأتي، والآن وقد أتيت فسوف يكون كل شيء على ما يرام.

ولم يفُتْ سوتر إدراك غرابة الموقف؛ فقد كان يعلم علم اليقين بحب تشارلز الجم للفتاة، وبمبادلة إيغ له ذلك الحب، وكانت الصلة التي تجمع بينهما ويتشبث بها كلاهما كل التشبث هي جناية مزدوجة من طراز شاذ، فلم يتبادلوا حديثاً ذا شأن في أثناء الطعام؛ فقد راح كارترايت يسرد طرفاً مما وقع له في رحلته بالخارج، وتكلمت إيغ عن شؤون لوموث وأحوال أهليها، وتكفّل سوتر بوصل الحديث بينهما كلما فتر.

وما أن فرغوا من العشاء حتى انتقلوا ثلاثتهم إلى منزل سوتر، ولم تُلقِ إيغ نظرة على ما احتواه هذا المنزل من فاخر الملابس وثمينِ التحف، بل طرحت معطفها فوق أحد المقاعد وقالت: والآن قُصّا عليّ كلّ شيء.

وأنصتت بعناية إلى السير تشارلز وهو يقصّ عليها كل ما

صادفهما في يوركشير، ولم تتمالك أن راحت تلهث حينما سرد عليها نبأ اكتشاف رسائل التهديد. وختم حديثه آخر الأمر قائلاً: ولا نستطيع إلا استنتاج ما حدث بعد ذلك، وأكبر الظن أن آرليس قبض ثمن صمته ومُهّدت له سبل الفرار.

ولكن إيغ هزت رأسها وقالت: آه، لا، ألا يمكنك أن تفهم؟ لقد لقي آرليس حتفه.

فجفل الرجلان، غير أن إيغ راحت تؤكد كلامها قائلة: نعم، لا ريب أنه لقي حفته، وهذا هو السر في اختفائه اختفاء تاماً حتى لم يُوفَّق أحد للوقوف على أثر له؛ فقد كان يعرف أشياء كثيرة، ومن أجل هذا قُتل. آرليس هو الضحية الثالثة.

لم يستطع تشارلز وصاحبه إلا أن يقررا أن ذلك الاحتمال قد لا يبعُد عن الصواب رغم أنه لم يخطر لهما من قبل ولم يفكّرا فيه، إلاّ أن كارترايت قال على سبيل الجدل: أصغي إليّ يا فتاتي العزيزة، جميل أن تقرري أن آرليس قد مات قتلاً، لكن أين جثته؟

فقالت إيغ: لا أدري أين توجد الجثة، لكن هناك أماكن متعددة يمكن أن توجد بها.

فغمغم سوتر قائلاً: هذه مسألة عسيرة.

فأصرت إيغ على رأيها قائلة: نعم، الأماكن متعددة، فهناك مثلاً تلك الغرف الصغيرة الكائنة فوق سقوف المنازل، وهي أماكن مهجورة لا يطرقها أحد، وأكبر الظن أن الجثة مخبّأة داخل حقيبة ملقاة في الغرفة العليا.

فقال كارترايت: قد يجوز ما تقولين، وقد يفوت الناس أن يفطنوا إليها وقتاً ما.

لم تكن إيغ بالفتاة التي تجامل في حديثها، ولقد فطنت إلى ما يعنيه كارترايت؛ فبادرته قائلة: رائحة التعفّن تنتشر إلى أعلى لا إلى أسفل، والعثور على الجثة المتعفنة في قبو تحت الأرض أيسر منه في الغرفة العليا، ومهما يكن من شيء فإذا فطن أحد إلى تلك الرائحة فسوف يعزوها لبعض الوقت إلى وجود فأر ميت.

- إذا صحّت نظريتك فهي تشير بشكل قاطع إلى كون القاتل رجلاً؛ إذ لا يتيسر للمرأة أن تحمل الجثة إلى أعلى المنزل، والحق أن هذه المهمة تشقّ على الرجل فضلاً عن المرأة.

- هناك احتمالات أخرى، وأكبر الظن أنكما لا تعلمان أن بالمنزل ممرّاً سرياً. لقد أطلعَتني الآنسة ستكليف على هذه الحقيقة، كما وعدني السير بارثلوميو بأن يرشدني إلى مكانه، ولا يبعُد أن يكون القاتل قد زوّد آرليس بما يطلب من النقود ثم أرشده إلى طريق الخروج من المنزل ورافقه داخل الممر ثم قتله. في وسع امرأة أداء هذه المهمة، وفي استطاعتها أن تطعنه بمدية أو تغتاله بطريقة ما من الخلف، ولا يعوقها عائق عن ترك الجثة حيث هي والرجوع إلى المنزل دون أن يفطن أحد إلى الحقيقة.

فهز السير تشارلز رأسه في ارتياب إلاّ أنه لم يتقدم لتفنيد رأي الفتاة. وكان سوتر يعلم أن هذا الرأي قد خطر له لحظة حينما وجد الرسالة ذات الصور المتعددة في غرفة آرليس، فقال

لنفسه: إذا كان آرليس قد قُتل حقاً فمعنى هذا أننا إزاء رجل شديد الخطر عظيم الأذى.

وشعر فجأة بقُشعْريرة باردة تمرّ بجسده. ولا ريب أن المخلوق الذي يقتل ثلاثة أشخاص لن يُحجِم عن القتل مرة أخرى. إذن فقد أصبح تشارلز وإيغ وهو في خطر شديد، لا شك أنهم عرفوا أكثر مما ينبغي.

وقطع عليه كارترايت تفكيره وهو يقول: هناك مسألة واحدة في رسالتك لم أستطع فهمها يا إيغ، فقد نوّهتِ إلى أن أوليفر ماندرز في خطر وأن رجال الشرطة يرتابون في أمره، ولا أستطيع حقاً أن أرى كيف يمكن أن يساورهم الشك في شخصه.

وهنا خُيّل إلى سوتر أن إيغ قد شعرت باضطراب يسير، وأن وجهها تورّد قليلاً، وقالت آخر الأمر: لقد كانت هذه الإشارة حماقة منّي، والحق أنني ارتبكت فلم أدرِ كيف أتصرّف؛ لقد خُيّل إليّ أن رجال الشرطة لا محالة مرتابون في أوليفر ماندرز بسبب قدومه على ذلك النحو المفاجئ وبعذر قد يبدو مصطنعاً.

فلم يتردد تشارلز في الاقتناع بذلك التفسير وقال من فوره: أجل فهمت.

وقال سوتر: أهو عذر مصطنع؟

فانثنت إليه إيغ قائلة: ماذا تعني؟

فأجاب سوتر: الحقّ أنها حادثة من لون غريب، وقد خيل إليّ أنه إذا كان قد أقنعهم فلن يتعذر عليك أن تفطني إلى ذلك.

فهزت إيغ رأسها وقالت: لا أدري، والحق أنني لم أفكر في هذا الموضوع، ولكن ما الذي يحمل أوليفر إلى افتعال تلك الحادثة إذا لم تكن قد وقعت حقاً.

فقال تشارلز وهو يبتسم في وجهها: قد تكون لديه أسباب خاصة تحمله على ذلك.

فقالت إيغ وقد تَضرّج وجهها بالحمرة: آه، لا، لا.

فتنهد تشارلز ولاحت عليه دلائل الاكتئاب ثم قال: إذا لم يكن ثمة خطر يهدد صديقنا الشاب، فلمَ أُقحم نفسي؟

فنهضت إيغ من مقعدها وأسرعت إليه وأمسكت بذراعه وقالت: ما إخالك تعود من حيث جئت. ما إخالك تعتزم أن تتخلّى عن هذه المهمة، ولا ريب أنك ستتولى كشف الحقيقة، ولا أعتقد أن ثمة من يستطيع القيام بها سواك، نعم، في وسعك أن تفعل ذلك، وسوف تفعله.

كانت الفتاة تتكلم بحَميّة وإخلاص فقال السير تشارلز وقد تأثّر مما بدا منها: أتثقين بي؟

- نعم، نعم، نعم. سنقوم بالبحث عن الحقيقة، أنت وأنا معاً.

- وسوتر؟

فقالت إيغ في شيء من الفتور: بالطبع، وسوتر كذلك.

وجلس تشارلز وقد بدت عليه آيات العزم وقال: يجدر بنا أول الأمر أن نحدد الموقف بوضوح تام، فهل نحن نعتقد أن شخصاً واحداً قتل بانغتون وبارثلوميو ستريغ؟

فأجابت إيغ وسوتر معاً: نعم.

- وهل نعتقد أن الجريمة قد تفرّعت من الأولى؟ وبعبارة أخرى هل نعتقد أن بارثلوميو قد قُتل حتى لا يقوم بإماطة اللثام عن سرّ الجريمة الأولى أو بالإفصاح عن ارتيابه في صددها؟

فأجابت إيغ وسوتر للمرة الثانية: نعم.

- إذن فواجبنا أن نبحث موضوع الجريمة الأولى، لا الثانية.

فأومأت إيغ برأسها إيجاباً، واستطرد كارترايت قائلاً: في رأيي أنه لن يُتاح لنا الاهتداء إلى القاتل قبل أن نكشف عن سبب الجريمة الأولى، والحقّ أن دون الوصول إلى هذا السبب عقبات كثيرة؛ فقد كان بانغتون كهلاً مسالماً وديعاً لطيف المعشر، لا يمكن أن يوجد في الدنيا عدو له، على أنه مع ذلك قد قُتل، ولا بد من دافع لقتله، وعلينا الآن أن نبحث عن ذلك الدافع.

وكفّ هنيهة عن الكلام ثم أردف: لنبحث عن الدافع. ما الأسباب التي تدعو إلى ارتكاب جريمة القتل؟ أعتقد أن أوّلها هو الفائدة المادية.

وقالت إيغ: والثأر.

وقال سوتر: وجنون الإجرام. على أن الدافع لا يتفق في هذه الجريمة. هناك الخوف كذلك.

كان السير تشارلز يسجل تلك الإجابات في ورقة أمامه، وما لبث أن قال: فلنناقش هذه الدوافع. لنتكلم عن الفائدة المادّية أولاً، فهل هناك من يستفيد مادّياً من موت بانغتون؟ وهل كان

بانغتون يملك مالاً أو كان يُتوقع أن يؤول إليه مال؟

فقالت إيغ: أنا أستبعد ذلك.

وقال سوتر: وكذلك أنا، لكن يحسن بنا أن نرجع في هذا الموضوع إلى السيدة بانغتون.

فقال تشارلز: ثم هناك الثأر. هل وقع اعتداء من بانغتون على أحد من الناس في أيام شبابه مثلاً؟ أيمكن أن يكون قد تزوّج فتاة كان يطمع فيها شاب آخر؟ علينا أن نستقصي تلك المسألة كذلك. ثم هناك جنون الإجرام. أيمكن أن يكون كلّ من بانغتون وتوللي قد قُتلا بيد مجنون مهووس؟ ما أحسب هذه النظرية تبدو معقولة؛ فحتى المهووس يكون في إجرامه شيء من المنطق، أعني أن المهووس قد يتخيل أنه مبعوث العناية الإلهية للقضاء على الأطباء أو رجال الدين مثلاً، لكنه لا يقضي على أفراد الطائفتين معاً. أعتقد أننا نستطيع أن نستبعد دافع الهوس. بقي أمامنا دافع الخوف، وأصارحكم بأن هذا الدافع يظهر أدنى من غيره إلى الصواب؛ فلعل بانغتون قد عرف شيئاً عن شخص ما؛ فقضى عليه حتى لا يذيع ما يعلمه.

فقالت إيغ وقد قطبت جبينها: مجال البحث هنا فسيح الأرجاء، وعلينا البدء بالتحري عن أحوال الأفراد الذين اجتمعوا في منزلك ليلة الوفاة. فلندوّن أسماء الذين كانوا في منزلك وفي منزل السير بارثلوميو.

وتناولت القلم والورقة من يد كارترايت وقالت: لقد كان ديكرس وزوجته في كلا المنزلين، ثم تلك المرأة المدعوة ولز، ثم ستكليف.

فقال كارترايت: يمكنك أن تستبعدي اسم أنجيلا ستكليف؛ فأنا أعرفها من زمن طويل.

فعبست إيغ وقالت بعناد: لن تنفعنا هذه الطريقة، ولا ينبغي أن نستبعد الأسماء لمجرد معرفتنا بأصحابها، ويحسن بنا ممارسة البحث بطريقة عملية، وفوق ذلك فأنا لا أعرف شيئاً عن أنجيلا ستكليف هذه، وفي رأيي أنها -مثل سواها- يمكن أن تكون القاتلة، بل هي أكثر احتمالاً من غيرها؛ فكل الممثلات لهنّ ماضٍ حافل. أظن أن حظها في الاتهام أكثر من سواها.

ونظرت إليه في تحدّ، فقابل نظراتها بعينين متوهجتين وقال: في هذه الحالة يحسن بنا ألاّ نستبعد اسم أوليفر ماندرز.

- كيف يمكن أن يكون أوليفر هو القاتل؟

فرد عليها: لقد كان في كلا المكانين، وجاء في ظروف تحمل إلى الاشتباه.

فقالت إيغ: بديع.

وكفّت هنيهة ثم أردفت: في هذه الحالة يحسن بي تسجيل اسمي واسم والدتي، فيجتمع لنا بهذا أسماء ستة من المشتبه فيهم.

- لا أظن.

وقالت إيغ وقد توهجت عيناها: إما أن نقوم بهذا البحث كما ينبغي، أو ننفض أيدينا منه.

وهنا حاول سوتر أن يصلح بينهما؛ فقرع الجرس وأمر بإحضار الشراب، بينما نهض كارترايت من مجلسه واتجه إلى

أحد أركان الغرفة وراح يتأمل تمثالاً بديع الصنع، ودنت إيغ من سوتر ودست يدها تحت ذراعه وغمغمت قائلة: لقد كان حتماً مني أن أستسلم للغضب. إنني غبية قصيرة النظر، ولكن ما الذي يدعونا إلى استثناء تلك المرأة؟ وما السر في شدة اهتمامه باستثنائها؟ أوه يا عزيزي، ما الذي يدفعني إلى تلك الغيرة العمياء؟

فابتسم سوتر وربّت على يدها وهو يقول: الغيرة لا تجدي يا عزيزتي، وإذا ساورتك الغيرة فلا تدعيها تبدو عليك. بهذه المناسبة أرجو أن تصارحيني، هل تعتقدين حقاً أن أنجيلا ستكليف ممن يمكن الاشتباه فيهم؟

- لا بالطبع، وإنما قلت هذا نكاية به.

فضحك سوتر من قولها، وفي تلك اللحظة عاد إليهما كارترايت وجلسوا يتناولون قليلاً من العصير، وفي أثناء ذلك رسموا خطة للعمل اتفقوا فيها على عودة كارترايت إلى «وكر الغراب» (وهي الفيلا التي لم يُقدِم أحد على ابتياعها حتى ذلك الحين) ورجوع إيغ ووالدتها إلى منزلهما في لوموث كذلك قبل الموعد الذي حددتاه لرجوعهما.

ولما كانت السيدة بانغتون ما تزال تقيم بتلك البلدة فقد كان في وسعهم أن يتصلوا بها ويقفوا منها على ما يمكن من المعلومات، ثم يعملوا على ضوء البيانات التي يصلون إليها. وقالت إيغ آخر الأمر: سنوفَّق في النهاية، نعم، أعرف أننا سنوفق.

* * *

الفصل الثاني عشر

استأجرت مرغريت بانغتون -بعد وفاة زوجها ولفترة ستة أشهر- منزلاً صغيراً من منازل الصيّادين لا يبعد كثيراً عن الميناء، وأقامت فيه في انتظار شقيقة له تقيم في اليابان كانت سوف تعود بعد تلك الفترة. والحق أن وفاة زوجها كانت قد أثّرت في نفسها تأثيراً قوياً؛ فقد أقامت معه نحو سبعة عشر عاماً في تلك البلدة الوادعة، قضاها كلّها راعياً لكنيسة سانت بيتروك، وفيما عدا ابنها روبين المتوفّى كان لها من زوجها ثلاثة أبناء، أحدهم يُسمّى إدوارد ويقيم في جزيرة سيلان، والثاني هو لويد وهو في أفريقيا الجنوبية، والأخير هو ستيفن الضابط بالباخرة أنغوليا.

وفيما كانت منهمكة ذات يوم في العناية بحديقتها الصغيرة (وهي تسليتها الوحيدة في هذه الدنيا) وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام كارترايت وإيغ ليتون جور. دُهشتْ السيدة بانغتون حين وقع بصرها عليهما؛ فقد كانت تعلم أن إيغ وأمها متغيبتان عن البلدة، وأن كارترايت يقوم بسياحة في جنوب فرنسا، على أنها مع ذلك احتفت بهما وقادتهما إلى غرفة الاستقبال الصغيرة.

وجّهت كلامها إلى كارترايت قائلة: الحق أن هذه مفاجأة؛

فقد كنت أظن أنك بعتَ فيلاّ «وكر الغراب».

فأجاب بصراحة: ذلك ما كنت أريده، ولكن مصير الإنسان ليس رهناً بإرادته.

والتفتت السيدة بانغتون إلى إيغ التي قالت: أصغي إليّ يا سيدة بانغتون. ليست هذه زيارة بالمعنى المفهوم؛ فقد جئتك وكارترايت في أمر خطير، وكل ما أخشاه هو إثارة أشجانك.

فراحت السيدة بانغتون تقلّب بصرها بين زائرَيها وقد ظهرت عليها دلائل القلق، فقال كارترايت: أحب -قبل كل شيء- أن أسألك عما إذا كانت وردتْك مكاتبة ما من وزارة الداخلية.

فأومأت السيدة بانغتون برأسها إيجاباً، فقال كارترايت: فهمت. أظن هذا سيجعل مهمّتنا أيسر.

- هل هذا ما جئتما بسببه؟ أعني تلك المكاتبة الخاصة باستخراج جثة زوجي من قبرها.

- نعم. أخشى أن يكون في هذا ما يسوؤك.

فقالت السيدة بانغتون في دعة: إن ما يروعني من هذا الأمر هو أنه يشير إلى كون وفاة زوجي لم تكن وفاة طبيعية، وهذا أمر مستحيل وغير معقول.

- أنا أقدّر ما تقولين، وهذا ما خطر لنا أول الأمر.

- ماذا تعني بعبارة «أول الأمر»؟

- ذلك لأن الارتياب في موت زوجك خطر في ذهني

ليلة وقوع الوفاة، على أني مثلك قد استبعدتها وطرحتها من ذهني.

وقالت إيغ: وكذلك خطر لي هذا الرأي أيضاً.

فنظرت إليها السيدة بانغتون في عجب وقالت: أنت كذلك؟! هل خطر لك أن أحداً ما قد قتل ستيفن؟

كانت لهجة المرأة تشف عن استنكارها الشديد لما سمعت، حتى لقد حار زائراها كيف يُفصِحان عن غرضهما. وأخيراً قال السير تشارلز: لا ريب أنك تعلَمين -يا سيدة بانغتون- بسفري إلى الخارج، وقد طالعتُ في الصحف حينما كنت في جنوب فرنسا نبأ وفاة صديقي بارثلوميو سترينغ في ظروف تكاد تكون مماثلة، وكذلك تلقيت رسالة من الآنسة ليتون جور.

فأومأت إيغ برأسها إيجاباً وقالت: لقد كنت مدعوّة لديه في ذلك الوقت، نعم يا سيدة بانغتون، إن الظروف كثيرة التشابه؛ فقد تناول قليلاً من الشراب ثم تغيرت هيئته على الأثر و... الواقع أن كلتا الحالتين تتشابهان إلى حد كبير، وقد لفظ الدكتور أنفاسه بعد دقيقتين أو ثلاث.

فهزت السيدة بانغتون رأسها ببطء وقالت: لا أستطيع أن أفهم، ستيفن! السير بارثلوميو الطبيب البارع الطيب القلب! من ذا الذي يمكن أن يفكر في قتلهما؟! لا ريب أن هناك خطأ ما.

فقال كارترايت: تذكّري أنه قد ثبت رسمياً أن بارثلوميو مات مسموماً.

- لا يفعل ذلك غير مجنون.

وتابع تشارلز قائلاً: أنا أحب أن أصل إلى الحقيقة يا سيدتي، ولا أرى داعياً لإضاعة الوقت هباءً، ولن يُذاع نبأ استخراج جثة زوجك لكيلا يتنبه الجاني فيلزم جانب الحذر. وقد رأيت اقتصاداً في الوقت أن أفترض ما سوف تكون عليه نتيجة تشريح جثة زوجك، وأن أعمل على ضوء هذا الافتراض فأسلّم بأنه قُتل كذلك بسم النيكوتين. وأبدأ أسئلتي فأقول هل كان أحدكما يعلم شيئاً عن استعمال النيكوتين النقي؟

- أنا أستخدم دائماً محلول النيكوتين في رش الأزهار، ولم أكن أعلم أنه من الموادّ السامة.

- أعتقد أن مركَّب النيكوتين الكيميائي النقي استُخدم في كلتا الحالتين، والحق أن حالات التسمم بالنيكوتين نادرة جداً.

فهزت السيدة بانغتون رأسها وقالت: الواقع أنني لا أعلم شيئاً عن هذه المادة غير أن مدمني التدخين قد يتأثرون بها.

- هل اعتاد زوجك التدخين؟

- نعم.

- أصغي إليّ يا سيدة بانغتون، لقد أعربتِ عن رفضك التام لفكرة اغتيال زوجك، فهل معنى هذا أنه لم يكن له أعداء فيما تعلمين؟

- أنا موقنة من عدم وجود أعداء لستيفن؛ فقد كان محبوباً من الجميع.

- أظن أن زوجك لم يترك مالاً كثيراً.

– نعم، وما تركه لا يكاد يُذكَر؛ فهو لم يكن يؤمن بضرورة الاقتصاد، وطالما زجرته لذلك.

– هل كان ينتظر مالاً يؤول إليه من أحد؟ ألم يكن يتوقع ميراثاً ما؟

– نعم، لم يكن لستيفن أقرباء كثيرون، وله شقيقة متزوجة بقس في نورثمبرلاند، لكنهما في شظف من العيش.

– إذن فلا يمكن أن يكون هناك من يستفيد من وفاة السيدة بانغتون.

– نعم.

– لنرجع إلى موضوع الأعداء الذي تناولناه الآن. قلتِ إن زوجك لم يكن له أعداء، لكن يُحتمل أنه كان له أعداء في عهد شبابه.

فقالت في ارتياب: لا أظن ذلك؛ فقد كان ستيفن مسالماً طيب القلب.

فقال تشارلز في تردد: لا أريد أن أبدو في نظرك من أرباب الخيال، ولكن ألم يوجد مثلاً في أثناء خطوبتك له منافس مرفوض؟

– كان ستيفن أول مساعد لأبي، وهو أول شاب قابلته بعد انتهاء عهد الدراسة، وقد تبادلنا الحب لأول وهلة، واستمرت خطوبتنا أربعة أعوام، ثم التحق بالخدمة في كِنت، وبذلك أُتيح لنا أن نتزوج. لقد كانت قصة حبنا غاية في البساطة والسعادة.

فقالت إيغ: هل تظنين يا سيدة بانغتون أن زوجك قد التقى

من قبل بأحد الضيوف الذين كانوا مدعوّين لدى السير تشارلز ليلة الوفاة؟

فبدت على السيدة بانغتون دلائل الحيرة وأجابت: هناك أنت وأمك يا عزيزتي، والشاب أوليفر ماندرز.

- نعم، ولكني أعني الآخرين.

- لقد شاهدنا كلانا منذ خمس سنوات في لندن الممثلة أنجيلا ستكليف في إحدى رواياتها المسرحية، وأُعجبنا بها إعجاباً شديداً حتى لقد كان في نيتنا أن نقابلها.

- وهل قابلتماها؟

- لا، لم يُتَح لنا أن نلتقي بممثلين أو ممثلات حتى جاء تشارلز إلى هنا.

- ألم تقابلا الكابتن والسيدة ديكرس؟

- أهما ذلك الرجل الصغير الجسم وتلك المرأة ذات الملابس العجيبة؟

- نعم.

- نعم، ولا تلك المرأة التي تقوم بتأليف الروايات المسرحية.

- هل أنت واثقة من أنكما لم تقابلا أحداً منهم من قبل؟

- أنا على تمام اليقين من أننا لم نقابلهم.

فقالت إيغ في إلحاح: ألم يذكر لك السيد بانغتون شيئاً عن

أولئك الأشخاص الذين كان مقدّراً أن تشاهديهم من الحفلة أو حين مقابلتك لهم؟

- لم يُطْلعني سلفاً على شيء، إلا أنه كان يتوقع سهرة طريفة. ولما ذهبنا إلى منزل السير تشارلز، آه! إننا لم نستمر طويلاً.

وبدت على مُحيّاها دلائل الألم؛ فتدخّل كارترايت بسرعة قائلاً: أرجو أن تغفري لنا إزعاجك على هذا النحو، ولكن في وسعك أن تدركي أن هناك شيئاً ما نتمنى لو يُتاح لنا الاهتداء إليه؛ إذ لا بد من وجود دافع لتلك الجريمة الوحشية.

فقالت السيدة بانغتون: أنا أُدرك ما تعني؛ إذا كانت هناك جريمة فلا بدّ من وجود دافع لها، لكنني لا أعرف ولا يمكن أن أتصور كنه ذلك الدافع.

وساد الصمت هنيهة، ثم ما لبث أن قطعه كارترايت قائلاً: أيمكنك أن تدلي إليّ بموجز عن تاريخ حياة زوجك؟

فراحت السيدة بانغتون تروي له قصة حياة زوجها، واستخلص من قصتها البيانات التالية: ستيفن بانغتون، وُلد في مقاطعة ديفونشير وتلقى علومه في مدرسة سانت بول وجامعة أكسفورد. عُيّن قساً وتقلّب في مراكز كنسيّة متعددة في هوكستون وألسيغتون، وتزوج مارجريت لوريمر في غلينغ بمقاطعة كِنت، ثم نُقل إلى كنيسة سانت بيتروك في لوموث.

وقال كارترايت بعد أن فرغ من تسجيل هذه البيانات: هذه المعلومات تهيّئ لنا سبيلاً للبحث، وأكبر فرصة تُتاح لنا في هذا

البحث هي تلك الفترة التي كان فيها قساً في كنيسة سانت ماري في غلينغ، وتاريخه السابق لتلك المرحلة لا يكاد يهم أحداً ممن كانوا في منزلي في تلك الليلة المعلومة.

فارتعدت السيدة بانغتون وقالت: أتظن حقاً أحدهم...؟!

فأجاب كارترايت: لا أدري كيف أحدد خواطري، ولا ريب أن بارثلوميو قد رأى واستنتج شيئاً ما، وقد مات كما مات زوجك من قبل، ويوجد خمسة...

فقاطعته إيغ: سبعة.

فأكمل حديثه قائلاً: يوجد سبعة من هؤلاء الأشخاص كانوا حاضرين كذلك، ولا بد أن يكون أحدهم هو الجاني؟

فهتفت السيدة بانغتون: ولكن ما السبب؟! ما السبب؟! ما ذلك الدافع إلى قتل ستيفن؟!

فأجاب كارترايت: هذا ما سوف نكشف عنه الستار.

* * *

الفصل الثالث عشر

نزل سوتر ضيفاً على صديقه في «وكر الغراب»، وفيما كان السير تشارلز وإيغ ليتون جور يزوران السيدة بانغتون كان سوتر من ناحيته يتناول الشاي مع الليدي ليتون جور في بيتها. كانت الليدي ماري قد أُعجبت بطبيعته منذ مقابلتهما الأولى، ولذا راحت تستأنف حديثها عن ابنتها، فقالت: إيغ فتاة عنيدة؛ فهي إذا انهمكت في موضوع لا تثنني عنه، وأصارحك بأنني لا أرتاح إلى إقحامها نفسَها في هذه القضية المحزنة.

- أنا أدرك ما ترمين إليه، وأصارحك أنني لا أميل كذلك إلى هذه القضية.

- أنا لا أحب ذكر الجريمة، ولم أحلم في حياتي قط بالاتصال بجريمة ما، والحق أنها جريمة مروعة. مسكين بارثلوميو.

فاجترأ على أن يسألها: ألم تكن لك به معرفة وثيقة؟

- أظن أنني رأيته مرتين فقط، وكانت المرة الأولى منذ نحو العام حينما قدِم إلى منزل السير تشارلز لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، والمرة الثانية في تلك الليلة المروعة التي تُوفّي فيها

السيد بانغتون. وأصارحك أني دُهشت كثيراً حينما تلقيت دعوة منه، على أني قبلتها رغبة في إدخال السرور على نفس إيغ.

فأومأ سوتر برأسه إيجاباً وقال: أرجو أن تقصّي عليّ شيئاً عن أوليفر ماندرز؛ فأنا يسرني التحدث عنه.

وتورّد وجهها؛ فنظر إليها متسائلاً فاستطردت تقول: أظنه شاباً ذكياً، رغم أن ظروفه كانت قاسية؛ يمكنك أن تدرك أن والده لم يتزوج بأمه.

- أحقاً تقولين؟ لم يخطر لي شيء ما في هذا الشأن.

فأردفت ماري: هذه القصة شائعة هنا، وإلا لَما حدّثتك عنها. كانت جدة أوليفر تقيم في منزل في الطريق المؤدّية إلى بلايموث، وكان زوجها محامياً في تلك البلدة، وكان لهما ابن التحق بأحد المصانع في لندن ونجح في حياته العملية، وهو الآن من ذوي اليسار. وقع هذا الابن عقب زواجه في شراك فتاة جميلة فُتنتْ به فكانت لهما مغامرات مشهورة، على أن زوجته لم تشأ أن تطلب الطلاق منه، لكن الفتاة لم تلبث أن تُوفّيتْ عقب وضع أوليفر بوقت قصير، فكفله عم له في لندن. ولما لم يكن لعمه وزوجته أولاد فقد عكفا على رعايته، فشب أوليفر يقسّم وقته بينهما وبين جدته، وكثيراً ما أتى إلى هنا لقضاء إجازته الصيفية.

وصمتت هنيهة ثم تابعت قائلة: لقد كنت (وما زلت) أشعر بالرثاء له، وأحسب أنه إنما يتظاهر بالصلف والغطرسة ليحجب إحساسه بالمهانة لأنه ابن غير شرعي.

- لا عجب؛ فهذه ظاهرة مألوفة، فما من مختال مزهوّ

إلا وفي منبته شيء من الضعة، وهذه الظاهرة هي مصدر الكثير من الجرائم؛ فعنها تتولّد شهوة السيطرة وتغلب المطامع الشخصية.

وصمت لحظة ثم سأل: وكيف كان سلوك أوليفر ماندرز نحو القس بانغتون؟

فترددت الليدي ماري قليلاً ثم أجابتك: كان بانغتون وزوجته يبديان أسفهما وعطفهما على ما أصاب أوليفر في نشأته، وقد اعتاد الشاب أن يختلف إلى الأبرشية أيام عطلته ليلهو ويلعب مع أبناء القس، وإن كنت أعتقد أن علاقته مع الأبناء لم تكن باعثة على الرضا بسبب مباهاته أمامهم بما أُتيحَ له من مال وترف، وأنت تعرف أن الصغار لا يتورعون عن التراشق بتلك المسائل.

فسألها: هذا صحيح، ولكن ماذا كان منه حينما كبر وترعرع؟

- لا أظن أنه اتصل بعائلة القس فيما بعد اتصالاً مذكوراً، والواقع أن أوليفر خاطب يوماً السيد بانغتون بخشونة وبغير احترام، وكان ذلك في بيتي هنا منذ عامين.

- وكيف حدث ذلك؟

- راح أوليفر يحمل على بعض التقاليد الدينية ويخوض فيها بما لا ينبغي. ولمّا قابله بانغتون بالصبر والتسامح لم يزدَد الشاب إلا إمعاناً وعتوّاً. أذكر أنه خاطب القس قائلاً: أراكم يا معشر القساوسة تُبدون استياءكم لأن أبي وأمي لم يتزوجا، وأحسب أنكم تنعتونني بابن الزنا، وأصارحكم بأنني أعجب

-من كل قلبي- من أولئك الأفراد الذين يُقدِمون على تحقيق ما يرونه صواباً غير عابئين بما يقوله نفر من القساوسة المنافقين.

لكن بانغتون لم يُجِبه إلا بما طُبع عليه من الرقة والتسامح، فلما رأى الشاب منه ذلك فطن إلى ما فرط منه وأمسك عن اندفاعه.

راح سوتر ينظر إليها مفكّراً ثم قال: وماذا كان رأي السير بارثلوميو سترينغ في الشاب؟ ألم يتحدث عنه مرة؟

- أذكر أنه قال يوماً إن لماندرز شخصية طريفة جديرة بالدراسة، وقال إنه يذكّره بإحدى الحالات المرضية التي كان يُشرف على علاجها في مصحته في ذلك الحين. ولما ذكرت أمامه أن أوليفر شاب تبدو عليه دلائل الصحة والقوة، أجابني قائلاً: نعم، إن حالته الصحية على ما يرام، لكنه يوشك أن ينهار.

وكفّت عن الكلام هنيهة ثم تابعت قائلة: أظن السير تشارلز بارثلوميو كان أخصائياً بارعاً في الأمراض العصبية.

- أظنه كان في طليعة المشاهير في هذا الميدان.

فقالت الليدي ماري: لقد كنت أميل إليه.

- ألم يذكر أمامك شيئاً عن وفاة بانغتون؟

- نعم، لم يفعل.

- ألم يطرق هذا الموضوع على الإطلاق؟

- نعم، لا أظنه فعل.

- هل كان سلوكه يوحي بأن هناك ما يشغله أو يقلقه؟

- كانت تلوح عليه دلائل المرح والانشراح، وقد ذكر لي في أثناء العشاء في تلك الليلة أنه سيبادرني بمفاجأة ما.

* * *

لم يتمالك سوتر وهو في طريقه إلى منزل صديقه أن يقلّب ذلك التصريح الذي سمعه على مختلف وجوهه. ترى ما تلك المفاجأة التي كان في نيّة السير بارثلوميو أن يبادر بها ضيوفه؟

* * *

الفصل الرابع عشر

اجتمع تشارلز وسوتر وإيغ في شبه مؤتمر في القاعة الفسيحة في «وكر الغراب» حول النار المشتعلة في الموقد بينما كانت العاصفة تزأر في الخارج، فسأل كارترايت: هل تقدمنا في أبحاثنا؟

فأجاب سوتر: لا؛ ففي مقدورنا الآن أن نستبعد فكرة الإفادة من وفاة بانغتون؛ فلا يبدو أن هناك من يستفيد مادياً بالقضاء على ستيفن بانغتون. وكذلك يمكن أن نُسقط من حسابنا دافع الثأر، وأعتقد -بغضّ النظر عن وداعة بانغتون وطبيعته المسالمة- أنه لم يبلغ من نباهة الشأن بحيث يثير عداء أحد. لم يبق أمامنا إذن إلا الدافع الأخير، وهو الخوف، فهناك من يبتغي من وفاة ستيفن بانغتون أمناً وطمأنينة.

فقالت إيغ: هذه فكرة طيبة.

ولاحت على وجه سوتر دلائل الرضا بما وُفّق إليه من استنتاج، أما كارترايت فقد علا وجهه شيء من الاستياء؛ فقد كان يريد أن يكون هو النجم في تلك القضية. وقالت إيغ ثانية: ما خطوتنا التالية بعد ذلك؟ أعني ما خطوتنا العملية؟

وقبل أن يجيب أحد عن ذلك السؤال، فُتح الباب وأعلنت الوصيفة قدوم زائر قائلة: السيد هيركيول بوارو.

ودخل بوارو ووجه يتألق بِشراً، فحيّا الحاضرين وهُم في دهشة بالغة، وقال باسماً: هل يُسمح لي أن أشهد هذا المؤتمر؟ لا ريب أنه مؤتمر كما قلت، أليس كذلك؟

فأجاب كارترايت وقد ثاب من ذهوله: حقيقة نحن مبتهجون لرؤيتك.

وصافح زائره بحرارة ودعاه إلى الجلوس قائلاً: من أين جئت على هذا النحو المفاجئ؟

- لقد ذهبت لزيارة صديقي الطيب السيد سوتر في لندن، ففوجئت بسفره إلى مقاطعة كورنوول، فأدركت على الفور أين ذهب، فركبت أول قطار إلى لوموث، وهأنذا.

وقالت إيغ: نعم، ولكن لماذا جئت؟

ولما أدركت ما في هذا السؤال من الخشونة وفساد الذوق تابعت وقد تورّد وجهها: أعني هل جئت لغرض خاصّ؟

فأجاب هيركيول بوارو: لقد جئت للاعتراف بخطئي.

والتفت إلى كارترايت وتابع قائلاً: لقد قررتَ في هذا الغرفة يا صديقي أنك غير مطمئن، وقد خُيل لي حين سمعتك أن طبيعتك المسرحية قد غلبت عليك، وقلت لنفسي: "إنه ممثل جيّد، وهو يهيم بالمآسي وينشدها بأي ثمن". وأصارحك أنه بدا لي -في ذلك الحين- أنه لا يُعقل أن يموت مثل ذلك الكهل الوديع المسالم ميتة غير طبيعية، بل أنا الآن لا أفهم كيف دُسّ

له السم ولا الدافع إلى ذلك. ومع ذلك فقد حدثت وفاة ثانية في ظروف مشابهة، ولا يمكن أن نعزو هذا التشابه إلى الصدفة المجردة. لا بد من وجود اتصال بين الحادثَين؛ ولذلك جئتك يا سير تشارلز كي أعتذر إليك وكي أقول إنني -أنا هيركيول بوارو- كنت مخطئاً فيما ذهبتُ إليه، وأنا أسألك أن تأذن بانضمامي إلى جماعتكم.

فقال كارترايت وقد لاح عليه اضطراب يسير: هذه مبادرة لطيفة منك يا سيد بوارو، ولا أدري وقد استنفدت من وقتك هذه المدة. إني...

وكفّ عن إتمام عبارته وهو لا يدري ماذا يقول، ونظر إلى سوتر مستنجداً فقال هذا: نعم، هذه مبادرة لطيفة.

- لا لا، ليس هذا هو الواقع؛ الدافع الحقيقي هو الفضول، أجل، وهو كذلك المساس بكبريائي؛ فمن واجبي أن أتدارك هفواتي، أما وقتي فهو لا شيء. على أنكم -بالطبع- إذا كنتم تشعرون بأنني أتطفل...

فقال كارترايت وسوتر معاً: لا، مطلقاً.

فالتفت بوارو إلى الفتاة وسألها: والآنسة؟

فلزمت إيغ الصمت هنيهة، وأحسّ الرجال الثلاثة بما لا يدع مجالاً للشك أن الفتاة لا تريد معاونة بوارو، أما سوتر فقد أدرك السرّ في مسلكها؛ فقد اتفق كارترايت وإيغ على الاضطلاع ببحث تلك القضية، وقبلا معاونته على أنه شخصية ثانوية لا تأثير لها في محيط البحث، أما هيركيول بوارو فسوف يكون له شأن آخر؛ فسيتزعم الجميع في البحث والاستقصاء،

ولا يبعُد أن يتنحى كارترايت إرضاءً له، فلا تلبث تلك الخطط التي رسمتْها إيغ أن تنهار وتتلاشى.

نظر سوتر إلى الفتاة مشفقاً؛ فقد كان وحده يفهمها من دون الجميع، فماذا يكون جوابها وهي تناضل للفوز بسعادتها؟ وكيف تُعرب عما يجيش في نفسها من الخواطر وتقول للدخيل: اذهب، اذهب، قدومك سيُفسِد كل شي. أنا لا أريدك.

على أن إيغ فاهت بالجواب الذي لم يكن منه بُدّ فأجابت وهي تبتسم ابتسامة فاترة: نعم، لا ريب أننا نُسَرّ بمعاونتك لنا.

* * *

الفصل الخامس عشر

قال بوارو حين وقف على رأي إيغ: بديع، نحن زملاء إذن. أرجو أن تتفضلوا بإطْلاعي على ظروف الموقف.

فتولّى سوتر سرد الخطوات التي قام بها هو وصديقه منذ عودتهما إلى إنكلترا، فلما ألمّ بظروف الاهتداء إلى مسوَّدات الرسائل امتدح ذكاء كارترايت، ثم التفت إلى سوتر وقال له حين فرغ من بسط قصته: لا ريب أن تلك الملاحظة التي أبديتها أنت كذلك فيما يتصل بظروف تبسّط السير بارثلوميو الفجائي مع رئيس خدمه هي ملاحظة صحيحة.

فقال كارترايت باهتمام: أتظن أن هناك أي مغزىً لقصة السيدة دي رشبريدغر؟

- هي فكرة كغيرها، ويمكن أن نستخلص منها دلالات متعددة، أليس كذلك؟

ولم يستطع أحدهم أن يدرك ماهية تلك الدلالات التي يشير إليها بوارو، غير أنهم لم يميلوا إلى الاعتراف بتلك الحقيقة، ولذلك وافقوا على رأي بوارو بعبارات مبهمة. وجاء دور كارترايت فتكلّم عن زيارته مع إيغ للسيدة بانغتون ونتيجتها

السلبية، ثم فقال: والآن ها أنت ذا قد وقفت على كل شيء وألممت بكل ما نعرفه، فقل لنا إذن كيف يبدو لك الموقف؟

ومال كارترايت إلى الأمام وقد بدت عليه دلائل الاهتمام، أما بوارو فقد لزم الصمت بضع دقائق والثلاثة يتفرسون في وجهه، وأخيراً قال: هل يمكنك يا آنسة أن تتذكري وصف الكؤوس التي قُدّم فيها الشراب إلى المدعوين على مائدة السير بارثلوميو؟

فهزت إيغ رأسها في استياء وتدخّل كارترايت فقال: في وسعي أن أخبرك بما تريد.

وذهب إلى دولاب ثم عاد يحمل بعض أكواب من الزجاج وقال: كانت تشبه هذه فيما عدا فروقاً يسيرة، فقد ابتاع السير بارثلوميو طقماً كاملاً في مزاد عُقد في محلّ لامسفيلد، والحق أنني أُعجبت بشكلها، ولما لم يكن في حاجة إليها كلها فقد أعطاني طائفة منها. إنها جميلة الشكل، أليس كذلك؟

فتناول بوارو الكأس وأدراها في يده ثم أجاب قائلاً: بلى، إنها من نوع دقيق الصنع، وقد خطر لي أن هذا النوع قد استُخدم في تقديم العصير تلك الليلة.

فهتفت إيغ قائلة: ما السبب؟

فلم يُجِب بوارو عن سؤالها وإنما اكتفى بالابتسام في وجهها، ثم استطرد قائلا: أجل، إن وفاة بارثلوميو يمكن تفسيرها في غير عناء، أما وفاة بانغتون فهي أكثر تعقيداً، ولكن حدث العكس.

فقال سوتر: ماذا تعني؟

فالتفت إليه بوارو وأجاب قائلاً: أصغ إليّ يا صديقي، لقد كان السير بارثلوميو سترينغ طبيباً ذائع الصيت، ويمكن أن تتوفر أسباب كثيرة للقضاء على طبيب ذائع الصيت. إن الطبيب يا صديقي يقع على أسرار خطيرة بطبيعة مهنته؛ فقد يخامره الشك في وفاة فجائية تحدث لأحد المرضى الذين يتولّى علاجهم، فيصبح بقاؤه غير مرغوب فيه. والآن -كما قلت لكم- لو كان العكس قد حدث... أعني لو كان بارثلوميو قد تُوفّي أولاً ثم أعقبه بانغتون، ففي تلك الحالة يمكن أن نعلّل وفاة القس بأنه قد شاهد شيئاً أو ارتاب في شيء يتصل بحادث الوفاة الأول.

وتنهد بوارو ثم أكمل: لكن الإنسان لا يستطيع أن يصوغ القضايا على ما يحب ويهوى، ولا مناص من قبول القضية على علاتها. على أن هناك رأياً أحب أن أقوله، أعتقد أنه لا يُحتمل أن تكون وفاة بانغتون قد حدثت من قبيل الصدفة المجردة، وأن السم الذي دُسّ له -إذا كان قد مات بالسم حقاً- قد قُصد به السير بارثلوميو، ولكن رجلاً آخر غير المقصود به، هو بانغتون، تناوله فقضى نحبه.

فرد كارترايت: هذه فكرة بارعة.

على أنه لم يلبث أن تجهّم وجهه وتابع قائلاً: لكني لا أحسب أن هذه الفكرة تصمد أمام الواقع؛ فقد جاء بانغتون إلى هذه الغرفة قبل أن يصاب بالنوبة التي قضت عليه بأربع دقائق، وهو لم يذق شيئاً في أثناء تلك الفترة سوى بضع جرعات من العصير، ولم يكن هناك شيء في هذا الشراب.

فقاطعه بوارو قائلاً: سبق أن أخبرتني بهذا، ولكن لنفرض جدلاً أن هذا العصير كان يحوي شيئاً ما، أفلا يمكن أن يكون هذا الشراب الخاص قد أُعدّ للسير بارثلوميو سترينغ، وأن بانغتون تناوله خطأ؟

فهز كارترايت رأسه وأجاب: لا يمكن أن يحاول أحد ممن يعرفون توللي جيداً تسميمه بواسطة الشراب.

- ولماذا؟

- لأنه لم يكن يشرب أي شراب بارد.

- أبداً؟

- أبداً.

فقال بوارو في استياء: يا لهذه القضية! لا يكاد يبدو فيها بريق أمل حتى يخبو.

واستطرد تشارلز قائلاً: وفوق ذلك فلست أفهم كيف يمكن الخلط بين الكؤوس أو ما يشبه هذا الافتراض. لقد حملَت الوصيفة تمبل هذه الكؤوس فوق صينية دارت بها على المدعوين، وتناول كلّ مدعوّ الكأس التي وقع اختياره عليها.

فغمغم بوارو: هذا صحيح، لكن مَن تمبل التي حملت كؤوس الشراب؟ أهي تلك الوصيفة التي أدخلتْني تلك الليلة؟

- نعم، وقد مضى عليها في خدمتي نحو أربعة أعوام، وهي فتاة حسنة السلوك تجيد عملها، ولا أعرف ماضيها. ربما كانت الآنسة ميلراي تعرف ذلك.

- الآنسة ميلراي سكرتيرتك؟ لقد تناولتُ لديك طعام العشاء في مناسبات مختلفة، لكني لا أظن أني قابلتها من قبل.

- هي لا تتناول العشاء معنا في الغالب، ولكن الرقم ١٣ هو السبب في جلوسها معنا تلك الليلة.

وراح كارترايت يقصّ على بوارو تفاصيل ذلك وأنصت إليه بوارو بعناية، فلما فرغ قال بوارو: فهمت، كانت هي صاحبة اقتراح الجلوس معكم على المائدة.

وأخلد بوارو إلى الصمت قليلاً واستغرق في التفكير ثم قال: أيمكن أن أتحدث قليلاً مع خادمتك المدعوة تمبل؟

- بلا ريب.

وقرع كارترايت الجرس فأقبلت تمبل على الفور. رأى فيها بوارو فتاة في نحو الثانية والثلاثين من عمرها، ذات شعر لامع ورشاقة واضحة، فقال كارترايت: يودّ السيد بوارو أن يلقي عليك بعض الأسئلة.

فالتفتت الوصيفة إلى بوارو فقال لها: هل تتذكرين تلك الليلة التي تُوفّي فيها السيد بانغتون؟

- نعم يا سيدي.

- أودّ أن أعرف كيف تم إعداد العصير.

فقالت تمبل: معذرة يا سيدي!

فقال بوارو: أريد أن أعرف كلّ ما يتصل بذلك العصير، هل تولّيت أنت مزجه؟

- لا يا سيدي؛ فالسير تشارلز يميل إلى القيام بهذه المهمة بنفسه. ولما فرغ من مزج الشراب صبّه في الكؤوس، ثم حملتُ الصينية وطُفت بها على المدعوّين من السادة والسيدات.

فسألها بوارو: هل كانت جميع كؤوس العصير فوق الصينية التي حملتِها؟

- كان السير تشارلز -قبل أن أحمل الصينية- يتحدث مع الآنسة ليتون جور، فأخذ لنفسه كأساً وناول الآنسة كأساً أخرى، ثم جاء السيد سوتر وتناول كأساً رابعة قدمها إلى الآنسة ويلز.

فقال سوتر: هذا صحيح.

وأردفت تمبل: أما باقي الكؤوس فقد حملتها بنفسي، وأحسب أن جميع المدعوّين قد تناولوا كؤوسهم ما عدا السير بارثلوميو.

- هل يمكنك أن تعيدي أمامنا تمثيل ما حدث؟

- سنرمز إلى المدعوين ببعض الوسائد. أتذكّر أني وقفت في هذا الموضع، وكانت الآنسة ستكليف هناك.

وأُعِيدَ تمثيل المشهد بمعاونة سوتر الذي كان قويّ الذاكرة لا يفوته ملاحظة شيء، ثم أخذت تمبل تطوف كما فعلتْ تلك الليلة، فرأوا أنها قد بدأت بالسيدة ديكرس، ثم تركتها إلى الآنسة ستكليف وبوارو، ثم إلى السيد بانغتون والليدي ماري والسيد سوتر الذين كانوا يجلسون معاً.

وطابق هذا التمثيل ما كان يتذكره سوتر. ولما أُمرت تمبل بالانصراف هتف بوارو قائلاً: وكانت تمبل آخر من تناول هذه

الكؤوس، لكن يستحيل أن تكون قد عبثت بها على وجه من الوجوه، وفوق ذلك فالكؤوس توضَع متقاربة ولا ينظر الشارب في اختيار كأس معينة حتى يُقال إنها صُفّت في وضع خاص. أخبرني يا سيد سوتر، هل وضع السيد بانغتون كأسه أم أبقاها في يده؟

- بل وضعها فوق هذه المائدة.

فسأل بوارو: هل دنا أحد من هذه المائدة بعد أن وضع الكأس؟

- لا؛ لقد كنت أقرب إليه من الجميع، وأنا على يقين من أني لم أعبث بها على وجه من الوجوه، ولم أكن أستطيع أن أعبث بها -إن أُتيح لي ذلك- دون أن يفطن إليّ أحد.

قال سوتر هذه العبارة في شيء من الجفاء، فبادر بوارو بالاعتذار قائلاً: لا، لا، أنا لا أتهمك؛ بل أريد أن أستوثق من الحقائق التي أبني عليها نظريتي. لقد ثبت من التحليل الكيميائي عدم وجود شيء غير عادي في الكؤوس، لكن بانغتون لم يأكل أو يشرب شيئاً آخر، وإذا صح أنه قد دُسّ له النيكوتين النقي قبل حضوره فلا ريب في حدوث الوفاة فوراً وقبل أن يجيء إلى هنا. أترون إلى أين تفضي بها هذه الفكرة؟

- لا تفضي إلى غاية معينة.

- هذه الفكرة تشير إلى حقيقة مروّعة، وهي حقيقة أرجو وأعتقد ألاّ تكون من الصواب في شيء، نعم، لا ريب في خطأ هذا، وأن وفاة السير بارثلوميو تدل على ذلك، ومع هذا...

وقطب وجهه وغرق في التفكير، بينما نظر إليه الجميع بفضول وتساؤل، فرفع رأسه وقال: هل رأيتم ما أرمي إليه؟ لم تكن السيدة بانغتون في منزل السير بارثلوميو ستريغ، إذن فإن السيدة بانغتون بريئة من الشك والاتهام.

- السيدة بانغتون؟! لكن أحداً لم يحلم بالارتياب فيها.

فابتسم بوارو وقال: حقاً؟ هذا عجيب. إلا أن هذه الفكرة قد خطرت لي على الفور، وقلت لنفسي إنه إذا لم يكن السم دُسّ للقس في العصير فلا بد أن يكون قد دُسّ له قبل دخوله المنزل بدقائق قلائل، فما الوسائل التي تكفل تحقيق هذه الغاية؟ قرص مثلاً مما يُتخذ للمساعدة على الهضم. ولكن مَن يمكن أن يسممه بمثل هذا القرص؟ لا يوجد من يستطيع ذلك غير الزوجة. ثم مَن الذي يتوفر له الدافع على ارتكاب الجريمة بحيث لا يرتاب فيه أحد من الخارج؟ الزوجة وحدها أيضاً.

هنالك هتفت إيغ في ثورة قائلة: لكنهما كانا يتبادلان الحب الوثيق والإخلاص الأكيد. أنت لا تفهم شيئاً على الإطلاق.

فابتسم بوارو ونظر إليها في رقة وقال: اسمحي لي يا آنسة أن أذكر أنني شاهدت خلال سنوات عملي الطويلة خمس جرائم قتل مات فيها أزواج محبون مخلصون على أيدي زوجاتهم، واثنتين وعشرين جريمة ماتت فيها زوجات محبات مخلصات على أيدي أزواجهن. آه من المرأة!

فقالت إيغ: أنت رجل مُريع! أنا أعلم أن عائلة بانغتون ليست من ذلك الطراز، هذه فظاعة!

فقال بوارو في لهجة صارمة: بل الجريمة هي الفظاعة بعينها.

إلا أنه استطرد بصوت أرقّ: لكنني -وأنا أنظر إلى الحقائق فقط- أتفق معك في أن السيدة بانغتون لم ترتكب تلك الجريمة المزدوجة؛ فهي لم تكن في منزل السير بارثلوميو سترينغ، نعم، لقد صدرت تلك الجريمة عن شخص شهد الاجتماعين -كما قرر السير تشارلز- وهو أحد هؤلاء الأشخاص السبعة المعروفة أسماؤهم لديك.

ساد الصمت عقب تلك العبارة، ثم قال سوتر أخيراً: وبم تشير علينا؟

فقال بوارو: لا بد أنكم قد أعددتم خطة خاصة بكم.

فقال كارترايت: لقد رأينا أن نتّهم كل شخص من أولئك الذين سُجّلت أسماؤهم حتى يقوم الدليل على براءته، ولكي أفسر غرضي أقول إننا اعتزمنا إماطة اللثام عن الصلة بين كل متهم وستيفن بانغتون، وأن نبذل كل ما نستطيع من ذكاء وسعة حيلة حتى نكشف عن طبيعة تلك الصلة، فإذا لم يثبت لنا وجود شيء تركنا هذا المتهم إلى غيره.

فقال بوارو: هذه طريقة تحليلية طيبة. ما الوسائل التي تعتزمون بها تحقيق هذه الغاية؟

- لم يتيسر لنا الوقت للمناقشة في هذا الصدد، ونحن نرحب برأيك فيما ينبغي عمله يا سيد بوارو.

فرفع بوارو يده قائلاً: لا تسألني شيئاً مما يدخل في باب

النصائح العملية يا صديقي، إن يقيني الذي لا يتزعزع هو أن كل معضلة أو قضية غامضة إنما يمكن تذليلها على خير الوجوه بالتفكير والاستنباط، ويمكنكم أن تستمروا في التحريات التي يدير السير تشارلز دفّتها بنجاح، وإذا احتجتم إلى الْتماس المشورة، فأنا على أتمّ استعداد لإمدادكم برأيي.

والتفت إلى إيغ وقال لها باسماً: ما رأيك في ذلك يا آنسة؟

فأجابت إيغ: أنا أوافق، وفي يقيني أنه سيكون لنا من خبراتك السابقة ما يساعدنا على النجاح.

ونظرت في ساعتها وقد بدت عليها أمارات الارتياح ثم هتفت قائلة: لا بدّ لي من العودة إلى المنزل؛ فوالدتي سيساورها القلق عليّ.

فقال تشارلز: سأُقلّك بسيارتي إلى منزلك؟

وخرج الاثنان معاً.

* * *

الفصل السادس عشر

أرسل سوتر بصره في إثر السير تشارلز وإيغ حين غادرا المكان، وما لبث أن انتفض حينما فاجأه بوارو بهذه العبارة: أرأيت؟ لقد صِيدت السمكة.

وكان بوارو يبتسم في شيء من السخرية ثم استطرد قائلاً: لنرجع الآن إلى تلك الجريمة شديدة التعقيد، وهي تثير حيرتي!

- أية جريمة تعني؟ الأولى أم الثانية؟

فقال بوارو: لا توجد غير جريمة واحدة، وما تنعته بالأولى والثانية ليسا إلا شطرين لجريمة واحدة، والحقّ أن الشطر الثاني واضح سواء في الدافع إليه أو في الوسائل التي استُعملت لتنفيذه.

فقاطعه سوتر قائلاً: مِن المحقَّق أن هذه الوسائل تبدو شديدة الغموض؛ فلم يثبت وجود السم في الشراب الذي قُدّم في كلتا الحالتين؛ فقد تناول الجميع من طعام واحد.

فقال بوارو: لا، لا، بل إن التباين كبير؛ فمن الواضح في القضية الأولى أنه لا يمكن أن يكون هناك مَن دسّ السم

إلى ستيفن بانغتون، ولو أراد السير تشارلز لاستطاع أن يسمّم أيّ واحد من ضيوفه، إلا أنه لا يستطيع أن يسمّم فرداً بعينه، وكان يمكن أن تدسّ الوصيفة تمبل شيئاً ما في آخر كأس فوق الصينية، لكن تَبيّن أن كأس بانغتون لم تكن آخر تلك الكؤوس. لا، مقتل بانغتون يبدو في نظري شديد الاستحالة حتى أكاد أنادي ببطلان ذاك الرأي وبأنه مات ميتة طبيعية، لكننا سنتحقق من هذه المسألة قريباً. أما القضية الثانية فأمرها يختلف كثيراً؛ فقد كان في وسع أي واحد من الضيوف الحاضرين (بما في ذلك رئيس الخدم والوصيفة) أن يدسّ السم للسير بارثلوميو سترينغ دون أية صعوبة.

فقال سوتر: لا أفهم ما تقصده.

فقاطعه بوارو قائلاً: سأبرهن لك يوماً ما على ذلك بإجراء تجربة بسيطة.

وفي تلك اللحظة أقبل السير تشارلز تبدو عليه دلائل الابتهاج، وقال: لنرسم الآن خطة للهجوم.

ثم سأل: أين تلك القائمة يا عزيزي؟ شكراً. يمكن أن نقسم أصحاب تلك الأسماء إلى عدة أقسام. لدينا السيدة ديكرس، وقد أبدت إيغ اهتماماً شديداً بإدراجها في هذه القائمة، ثم هناك أيضاً أنجيلا ستكليف.

فقال سوتر: سوف تكون من نصيبك يا كارترايت؛ فأنت تعرفها معرفة طيبة، أليس كذلك؟

فقال كارترايت: بلى، وهذا ما يجعلني أتخلّى عنها لغيري حتى لا أُتّهم بمحاباتها؛ فهي صديقة لي.

وقال بوارو: إذن سوف يخلفك السيد سوتر في هذه المهمة.

فقال كارترايت: ولا ريب أننا نستطيع أن نُسقِط من حسابنا الليدي ماري وإيغ. ولكن كيف سيكون موقفنا مع ماندرز؟

فقال بوارو: سيتكفل السيد سوتر بالبحث في أمر ماندرز، لكنك نسيت اسماً مسجّلاً في القائمة يا سير كارترايت؛ فقد تجاوزت عن الآنسة موريل ويلز.

- صحيح، مادام سوتر سينظر في أمر ماندرز فسأتكفل بشخص الآنسة ويلز، هل اتفقنا؟ ألديك ما تشير به علينا يا سيد بوارو؟

فأجابه بوارو: لا، ولكن هناك مسألة تثير الحيرة؛ صديقك السير بارثلوميو لم يستشعر في الشراب طعماً غير مألوف، رغم أن للنيكوتين النقي طعماً لاذعاً جداً شديد المرارة.

فقال السير تشارلز متئداً: لقد أصيب توللي بنوبة إنفلونزا حادة في الربيع الماضي أثّرت تأثيراً قوياً في حاستَي الشم والذوق لديه.

فقال بوارو في شيء من التفكير: آه، نعم، ربما كان هذا هو السبب، وهو يفسر كثيراً من الأمور.

* * *

الفصل السابع عشر

جلست إيغ ليتون جور في محل أزياء أمبروزين الذي تملكه وتديره السيدة ديكرس، وجعلت تراقب عاملات الأزياء وهنّ يخطرن أمامها، وانتهزت الفرصة وراحت تجاذب الحديث مع السيدة ديكرس. ثم توسمت في إحدى العارضات البساطة والصراحة؛ فانتظرتها في الخارج حتى فرغت العارضة من عملها وغادرت المحل. دعتها إيغ لتناول قدح من الشاي واستدرجتها في الحديث.

بعد انصراف الفتاة كتبت إيغ في مذكراتها هذه الكلمات تلخيصاً لنتيجة مهمتها: سنثيا ديكرس، من المعتقد أنها في ضائقة مالية، تتلخص أوصافها في كونها ذات مزاج ناري وطبع شرير، كانت لها علاقات مع شاب موسر أشار عليه السير بارثلوميو سترينغ بالقيام برحلة بحرية، لم يبدُ عليها أيّ انفعال عند ذكر اسم بانغتون أمامها.

وقالت إيغ تناجي نفسها بعد أن فرغت من تدوين تلك البيانات: هذه المعلومات ليست ذات قيمة، وقد يمكن أن يُستخلص منها الدافع لاغتيال السير بارثلوميو، ولكن الصلة واهية. ربما يستطيع السيد بوارو أن يستنبط منها شيئاً.

كتمت إيغ أنفاسها حينما وقع بصرها فجأة على صحيفة في حانوت قريب منها ومكتوب في رأسها العبارة التالية: "استخراج جثة من قبرها لإعادة الكشف عليها، نتيجة التشريح الطبي"... وأسرعت إيغ بابتياع نسخة من الصحيفة، وبينما كانت تفعل ذلك اصطدمت بامرأة أخرى كانت تحذو حذوها، ولما حاولت إيغ أن تعتذر إليها عرفت فيها الآنسة ميلراي سكرتيرة السير تشارلز.

ووقفتا معاً وأخذتا تفتشان عن النبأ حتى اهتدتا إليه. تراقصت الكلمات أمام عيني إيغ: «نتيجة تشريح الجثة... الكشف الطبي... النيكوتين»، وما لبثت إيغ أن قالت: إذن فقد مات قتلاً؟!

فقالت الآنسة ميلراي: أواه يا عزيزتي، هذا فظيع! فظيع!

وتقلصت سحنتها، واستطردت قائلة: هذا محزن! لقد عرفته طول حياتي.

- تعنين السيد بانغتون؟

- نعم، فأمي تقيم في غلينغ حيث كان بانغتون راعي كنيستها وقتاً ما. الحق أن هذا محزن!

* * *

الفصل الثامن عشر

قالت أنجيلا ستكليف موجهة حديثها إلى زائرها السيد سوتر: أخبرني أولاً، أأنت صديق أم عدوّ؟

فأجابها: أيجمل بك إلقاء سؤال كهذا؟

- نعم يا سيدي العزيز، هل جئت تزورني من أجل سواد عينيّ -كما يقول المثل- أم أنك تريد أن تزعجني بحديث الجرائم والمجرمين؟

فأجاب سوتر وهو يُحني رأسه قليلاً: أترتابين في أن الشطر الأول من سؤالك هو الصواب؟

فردت أنجيلا: نعم؛ فأنت رجل يدل مظهره على غير مخبره.

- لا، لا، هذا غير صحيح، على أني أعترف يا سيدتي العزيزة أن وفاة السير بارثلوميو قد أثارت اهتمامي، ولعلك لا تجهلين أني قديم العهد بمثل هذه الاهتمامات.

- أخبرني عن مسألة واحدة، هل يوجد شيء من الصحة فيما كانت تقوله تلك الفتاة؟

- أية فتاة؟ وماذا قالت؟

- الفتاة المدعوّة ليتون جور، تلك الفتاة التي سحرها السير تشارلز وخلب عقلها، وهي تظن أن ذلك الكهل الذي كان يقيم في مقاطعة كورنوول قد قُتل كذلك. بهذه المناسبة، هل صحيح أن السير تشارلز ينوي الاقتران بتلك الفتاة؟

- لا أعلم، ولكني كثيراً ما ساءلت نفسي عمّا حمل السير كارترايت على عدم الزواج حتى الآن.

فقالت أنجيلا: إنه لم يُبدِ قط ما يدل على أنه يميل إلى الزواج، لكنه كان دائماً رجلاً شديد الجاذبية وكانوا يلقّبونه ساحر النساء.

وتنهدت ثم نظرت إلى سوتر وقد لمعت عيناها واستطردت: لقد كنا فيما مضى... ولكن لماذا أنكر ما يعرفه كل إنسان؟ كم كانت حياتنا معاً سعيدة تدعو للبهجة والاغتباط. على أننا ما نزال -حتى الآن- أصدقاء كما كنا فيما مضى، وأحسب أن هذا هو السبب في أن تلك الطفلة المدعوّة ليتون جور ترمقني بشراسة، ولعلها تظن أنه ما زالت بيني وبين كارترايت تلك العاطفة المشبوبة.

وضحكت ثم استطردت قائلة: لِم لا يأتي إليّ السير كارترايت ويسألني في هذا الموضوع؟ لا بدّ أنه يعدّني المتهمة الأولى. فهل أنا كذلك حقاً يا سيد سوتر؟ ما رأيك؟

فقال سوتر: الدافع لديك غير متوفر.

- هذا صحيح؛ فقد كنت أميل إلى بارثلوميو سترينغ،

وكنّا أيضاً أصدقاء، وأحب -من أجل تلك الصداقة- أن أُسهم في تعقّب قاتله. أخبرني كيف يمكن أن أقوم بهذه المعاونة؟

- لست أظنك شهدت أو سمعت شيئاً له اتصال بهذه الجريمة.

فأجابت أنجيلا: لقد أخبرت رجال الشرطة بكل ما أعرفه.

- وما رأيك في رئيس الخدم؟

- لم أُعرْه أي انتباه.

- هل لاحظتِ شيئاً معيناً في مسلك الضيوف؟

- لا، نعم... ذلك الشاب المدعوّ ماندرز قد ظهر فجأة دون أن يتوقّع أحد قدومه.

- وهل لاحظتِ على السير بارثلوميو أنه دُهش أيضاً؟

- نعم، أظنه دُهش، وقد أعرب لي قُبيل ذهابنا إلى قاعة المائدة عن عجبه من ذلك الحادث قائلاً إنها وسيلة مبتكرة لاقتحام البيوت.

- هل كان السير بارثلوميو في حالة معنوية طبية؟

- إلى أقصى حد.

- وما حكاية ذلك الممر السري الذي ذكرتِه لرجال الشرطة؟

- أظنه يبدأ من قاعة المكتبة، وكان السير بارثلوميو قد

وعدني بأن يُريني ذلك الممرّ إلا أنه قضى نحبه قبل أن يُتاح له ذلك.

- وكيف ورد ذكر هذا الممر؟

- كنا نتحدث عن مكتب ابتاعه حديثاً فسألته إن كان به دُرج سرّي، وذكرت له أني أحب ذلك النوع من الأدراج، فأجابني قائلاً: لا، لا أعرف بوجود أي درج سري بهذا المكتب، ولكن يوجد بالمنزل ممر سري.

- ألم يذكر مرة أمامك اسم مريضة لديه تُدْعى السيدة دي رشبريدغر؟

- لم يفعل.

* * *

الفصل التاسع عشر

دخلت الآنسة ويلز إلى غرفة الاستقبال في بيتها حيث كان السير كارترايت ينتظرها، فصافحت زائرها وقدمت له لفافة تبغ ثم دعته إلى الجلوس وقالت له: لو كانت أمي هنا لسُرّت بلقائك؛ فهي تعشق المسرح وأبطاله، وهي الآن تشهد إحدى المسرحيات في حفلة الليلة. الحق أنها سوف تبتهج كثيراً برؤيتك، فقد جاءت الآنسة ستكليف إلى هنا فاحتفت بها أمي احتفاءً كبيراً.

- هل جاءت أنجيلا إلى هنا؟

- نعم، فهي تستعد لتمثيل إحدى رواياتي، «الكلب الضاحك».

- لقد قرأت عنها، وهي قصة محبوكة. أيمكنك أن تعرفي سبب قدومي إليك اليوم؟

- ما أظنك جئت فقط لرؤية شخصي الضعيف.

-السيد سوتر هو الذي أوحى إليّ بالمجيء، وهو يظن أنه إذا كان ثمة شيء جدير بالملاحظة في تلك الليلة التي قضيتها في ميلفورت آبي في منزل السير بارثلوميو، فلا يمكن أن يفوتك.

- لا ريب أن أقرر أني أبديت اهتماماً كبيراً حينذاك؛ فإنه لم يُتَح لي من قبل أن أرى جريمة عن كثب، وكان من الطبيعي -وأنا أقوم بمهمة التأليف- أن أحاول ملاحظة كل ما حولي ما استطعت. إذن فهذا هو السر في فضول الآنسة ويلز ودخولها فيما لا يعنيها؟

قال تشارلز: وماذا لاحظتِ؟

- آه، لا شيء، لا شيء يستحق الاهتمام يا سيد تشارلز، وكل ما تيسر هو بعض ملاحظات عن أخلاق الناس.

- ألم تلاحظي أشياء مادية؟

- نعم، آه، في الواقع لقد لاحظت شيئاً كان يحسُن بي أن أُفضي به إلى رجال الشرطة، ولكني نسيت.

- وما هو؟

- بشأن رئيس الخدم، فقد رأيت فوق معصمه الأيسر شامة، لاحظت ذلك حينما كان يقدّم لي الطعام، وأحسب أن مثل هذا النبأ قد يكون له بعض الفائدة.

- بل إن له أكبر الفائدة؛ فرجال الشرطة يجدّون في أثر ذلك الرجل المدعوّ آرليس. ولكن أين كانت تلك العلامة بالضبط؟ وما حجمها؟

- أرجو أن تبسط ذراعك.

وأطاع السير تشارلز، فأشارت بإصبعها إلى الموضع وقالت: كانت العلامة هنا، وهي في حجمها تقارب البندقة.

فقال لها وهو يغطي ذراعه: شكراً لك، هذا وصف واضح.

- أتظن أنه يجدر بي أن أكتب إلى رجال الشرطة وأُطْلعهم على الأمر؟

- بلا ريب؛ فقد يكون له قيمة في اقتفاء آثار الرجل.

واستطرد بعد صمت قصير: ألم يذكر السير بارثلوميو اسم سيدة تُدعى دي رشبريدغر؟

- لا أظنه فعل.

- أليس هناك ما يمكن أن تفضي به إليّ؟ أعني شيئاً مما يدور حول أحد الضيوف.

- أخشى أن أقول إنه ليس لديّ ما يمكن أن أدلي به إليك يا سيد تشارلز.

فقال وهو ينهض: حسناً، لا ريب أن سوتر سوف يشعر بشيء من الخيبة.

فقالت: أنا آسفة.

- إلى اللقاء يا آنسة ويلز، ومعذرة إذا كنت أزعجتك، ولا تنسي أن تخبري الشرطة بأمر تلك الشامة التي على ساعد رئيس الخدم الأيمن.

- لن أنسى ذلك.

- حسناً، إلى اللقاء.

ثم استطرد قائلاً: ولكن صبراً لحظة، هل قلتِ إن الشامة

كانت على الساعد الأيمن؟ لقد ذكرت منذ لحظة أنها كانت على الساعد الأيسر؟

- هل ذكرتُ ذلك حقاً؟ هذا خطأ مني.

- أيّ ساعد إذن؟

- دعني أتذكر، كنت جالسة هكذا، أما هو... عفواً يا سير تشارلز؛ أرجو أن تقدم إليّ هذه الصينية النحاسية كما لو كانت صينية طعام، تعالَ من ناحية اليسار، هذا حسن، شكراً لك، أنا الآن على تمام الثقة. كانت على الساعد الأيمن كما قلت أولاً.

وهنا ودّعها السير تشارلز للمرة الثالثة والتفت إلى الوراء وهو يغلق الباب فوجد أن الآنسة ويلز لا تنظر إليه، بل كانت واقفة حيث تركها، وقد راحت تحملق نحو النيران المستعرة في الموقد وعلى شفتيها ابتسامة ارتياح يشوبها الخبث، فقال لنفسه: هذه المرأة تعرف شيئاً، أقسم أنها تعرف شيئاً ولا تريد أن تبوح به! فما هذا الشيء الذي تعرفه؟

* * *

الفصل العشرون

ذهب سوتر إلى المصنع الذي يعمل فيه أوليفر ماندرز وأرسل إليه بطاقته مع أحد الخدم، فعاد إليه الخادم بعد لحظة وذهب به إلى غرفة صغيرة حيث رأى أوليفر قاعداً أمام طاولة الكتابة. نهض الشاب وصافح سوتر وهو يقول: أشكر لك تفضّلك بزيارتي.

غير أن ملامح وجهه كانت تقول: ما أثقلها زيارة!

وقعد سوتر على كرسي وسأل: هل قرأت الصحف اليوم؟ لقد ثبت بعد استخراج جثة بانغتون أن الرجل مات مسموماً بالنيكوتين.

- نعم، لقد قرأت هذا النبأ، وسوف تُسَرّ له إيغ؛ فقد كان من رأيها دائماً أن في الأمر جريمة.

- ألم تهتم أنت بهذا النبأ؟

فهز الشاب كتفيه وقال: القتل بالسمّ من الجرائم المزعجة، بل من الجرائم التي تدل على اللؤم والخسة.

فقال سوتر: لقد جئت لأعرف سر حادث التصادم الذي

وقع لك في ميلفورت آبي، فهل لديك تفسير معقول له؟

فقال الشاب ببطء: لدي تفسير لا أعلم هل هو معقول أم غير معقول.

- هل تحب أن تعرف رأيي في هذا التفسير؟

فسكت أوليفر قليلاً ثم قال: لقد ذهبت إلى هناك بالطريقة التي اقترحها عليّ السير بارثلوميو.

فهتف سوتر في دهشة: ماذا؟

- هذا غريب إلى حد ما، أليس كذلك؟ ولكنه الحقيقة. لقد تسلمت منه رسالة يقترح عليّ فيها أن أصطنع حادثاً وأن ألتمس ضيافته، وقال لي إنه لا يستطيع إبداء الأسباب كتابةً، ولكنه سيوضح لي كل شيء في أول فرصة.

- وهل أوضح لك كل شيء؟

- لا؛ فقد ذهبت إلى هناك قُبيل موعد العشاء فلم أقابله وحده، وبعد العشاء تُوُفّي الرجل.

- وهل هذه الرسالة معك؟

- لا، لقد مزقتها بناء على رغبة السير بارثلوميو لأنني وجدتني حيال مغامرة طريفة غير مألوفة في الحياة العادية المملة.

ثم استطرد بعد صمت قصير: أظن من الأفضل الإفضاء بكل شيء؛ لأن تلك المرأة لا يمكن أن تلزم جانب الصمت.

فنظر إليه سوتر متسائلاً فأردف الفتى قائلاً: حدث

في صباح اليوم التالي لوقوع الجريمة -بينما كنت أتحدث إلى الآنسة ويلز- أني أخرجت من جيبي حافظة أوراقي فسقط منها شيء، فالتقطته الآنسة ويلز وأعادته إليّ.

- وما هذا الشيء؟

-قصاصة من إحدى الصحف تتضمن كلاماً عن النيكوتين كسُمّ قاتل، ومن سوء الحظ أنّ الآنسة ألقت نظرة سريعة على مضمون القصاصة قبل أن تردّها إليّ.

- وكيف اتفق أنْ أثار النيكوتين اهتمامك إلى هذا الحد؟

- إنه لم يُثِر اهتمامي قط، ولا بدّ أن يكون عنوان الموضوع قد لفت نظري في وقت ما؛ فاقتطعته من الجريدة ووضعت القصاصة في حافظة أوراقي، ولكني لا أذكر بالتحديد متى وكيف فعلت ذلك.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

جلس بوارو في مقعد كبير بالجناح الخاص به في فندق ريتز وراح يُصغي، واستندت إيغ إلى أحد المقاعد، ووقف السير تشارلز أمام الموقد، وجلس سوتر وراح يرقب تلك المجموعة.

قالت إيغ: لقد مُنيتُ بالفشل على طول الخط.

فهز بوارو رأسه بلطف وأجاب: لا، لا، أنت تبالغين. لقد استطعت جمع طائفة طيبة من المعلومات.

فقال السير تشارلز: الآنسة ويلز تعرف شيئاً، أقسم أنها تعرف شيئاً.

- كذلك تعرف السيدة ديكرس أشياء؛ لقد كانت في أشد الحاجة إلى المال، فأفسد عليها السير بارثلوميو فرصة سانحة للحصول على ما تريد من الشاب الغنيّ المريض الذي وقع في شباكها.

صمت مرة أخرى فسألته إيغ: والآن ماذا يجب أن نفعل؟

فابتسم بوارو وأجاب: هناك شيء واحد نستطيع أن نفعله،

وهو أن نفكر.

فهتفت إيغ في استنكار: لا شيء غير التفكير؟!

- طبعاً، نفكر فقط، وبالتفكير تُحل جميع المعضلات.

- ألا تستطيع أن تفعل شيئاً؟

- نحن نترك العمل لك يا آنسة؛ ففي استطاعتك مثلاً أن تُجري تحقيقاً في غلينغ حيث قضى السيد بانغتون عدة أعوام. تقولين إن والدة السيدة ميلراي تقيم هناك وهي مصابة بفالج، ومثلها يسمع كل شيء ولا ينسى شيئاً، فاذهبي إليها واستجوبيها؛ فقد تقفين منها على جديد.

فسألته في إلحاح: وأنت؟ أليس في نيتك أن تفعل شيئاً؟

- ما دمت تصرّين فسأحاول، ولكن دون أن أبرح مكاني، سأقيم لكم حفلة.

- حفلة؟!

- نعم، وسأدعو إليها الكابتن ديكرس وزوجته والآنسة ستكليف والآنسة ويلز وأوليفر ماندرز ووالدتك وجميع الموجودين هنا الآن.

- مرحى، أنا واثقة الآن أن أمراً سيقع في تلك الحفلة، أليس كذلك؟

- سوف نرى. والآن أريد أن أنفرد بالسير تشارلز؛ فعندي مسألة أحب أن أكلمه فيها.

* * *

أقيمت الحفلة مساء يوم الإثنين، وحضرها جميع الذين دُعوا إليها، وعندما اكتمل جمعهم أجالت الآنسة ستكليف البصر حولها وقالت وهي تبتسم: أنا واثقة -يا سيد بوارو- من أنك ستلخّص لنا الأحداث ببراعتك المعهودة، ثم تشير بإصبعك نحوي فجأة فتقول: "أنت التي ارتكبت الجريمة"، فيوافقك الجميع. وعندئذ أنفجر باكية وأعترف بكل شيء. أواه يا سيد بوارو؛ أنت ترعبني.

فقال بوارو وهو يقدم إليها كأساً من المرطبات: هذه حفلة ودّية بسيطة يجب فيها عدم الكلام عن القتل وسفك الدماء والسمّ.

ورفع الجميع كؤوسهم وقد ظهرت على وجوههم علامات الطمَأنينة المفتعلة، وفجأة هتف بوارو: آه! ماذا حدث؟

ذلك أنه سمع -كما سمع الآخرون- صيحة مختنقة؛ فاتجهت جميع الأنظار إلى السير تشارلز الذي وقف يترنح وقد انقلبت سحنته، ثم سقط الكأس من يده على السجادة التي تغطي أرض الغرفة، وتراجع إلى الوراء خطوة أو خطوتين ثم سقط على الأرض.

سادت لحظة دهشة وذهول، ثم صرخت الآنسة ستكليف وصاحت إيغ: تشارلز! تشارلز!

وأرادت أن تشق طريقها نحوه، ولكن سوتر أمسك ذراعها برفق، وصرخت الليدي ماري: يا إلهي! ضحية جديدة.

وهتفت الآنسة ستكليف: لقد تسمم أيضاً. هذا مخيف!

أما بوارو فقد أسرع إليه وركع بجانبه وفحصه ثم نهض واقفاً وراح يزيل الغبار عن ركبته. وساد صمت عميق لم يكن يُسمَع خلاله غير تنهدات الآنسة ستكليف. وبدأ بوارو كلامه فقال: أيها الأصدقاء...

ولم يزد على ذلك لأن إيغ انفجرت قائلة له: أيها المغفَّل، أيها الأحمق القصير القامة، كيف تزعم أنك بارع وعظيم ثم تسمح بوقوع هذا؟ هذه جريمة أخرى تُرتكب تحت سمعك وبصرك. أنت الذي قتلت تشارلز، أنت، أنت، أنت!

فهز بوارو رأسه بحزن وقال: هذا صحيح يا آنسة، لقد قتلت السير تشارلز، ولكني قاتل من طراز خاص؛ ففي مقدوري القتل ثم رد الحياة إلى ضحيتي.

ثم تحول عنها وقال بصوته الهادئ العادي: أنت ممثل بارع يا سير تشارلز؛ فدعني أهنئك.

فنهض الممثل العظيم واقفاً وهو يضحك وأحنى قامته للقوم في شيء من التهكّم، فهتفت إيغ: سيد بوارو، أنت... أيها الوحش!

وصاحت أنجيلا: وأنت يا تشارلز، أيها الشيطان.

فرفع بوارو يده طالباً من مدعوّيه التزام الصمت وقال: أيها الأصدقاء، أرجوكم المعذرة؛ فقد كان من الضروري تمثيل تلك المهزلة كي أثبت لكم -وأثبت لنفسي ضمناً- حقيقة كان عقلي يحدّثني بصحتها، فأصغوا إليّ. لقد وضعت بين هذه الكؤوس كأساً تحتوي ماء قراحاً، وهذه الكؤوس -على مثال الكؤوس التي يمتلكها السير بارثلوميو والسير تشارلز كارترايت- مصنوعة

من الزجاج السميك، وإذا وُضع بها قليل من سائل لا لون له كان من المتعذِّر ملاحظة وجود هذا السائل. تصوروا إذن كأس السير بارثلوميو -بعد أن وُضعت هذه الكأس على المائدة- وقد استطاع بعضهم أن يدسّ فيها كمية من النيكوتين النقي. والواقع أنه كان في مقدور أيّ إنسان وضع النيكوتين في الكأس، كما كان ذلك في مقدور رئيس الخدم أو إحدى الخادمات أو أحد المدعوّين، فلما مُلئت الكؤوس شرب السير بارثلوميو محتويات كأسه ومات. وقد دبرنا اليوم مأساة ثالثة، ولكنها كانت في هذه المرة مأساة مفتعلة، دبّرتها مع السير كارترايت وطلبت منه أن يقوم بدور الضحية، وقد قام بالدور خير قيام. والآن افترضوا أن الحادث لم يكن مهزلة مدبَّرة، وافترضوا أن كارترايت مات حقاً، فما أول خطوة يخطوها رجال الشرطة؟

فهتفت أنجيلا: سوف يبدؤون بفحص محتويات الكأس.

فمسّ بوارو الكأس بطرف حذائه وقال: لنفترض أني وضعت النيكوتين بالكأس، ففي رأيكم إذن أن يفحص رجال الشرطة الكأس، ويجدوا فيها آثار النيكوتين.

- طبعاً.

فهز بوارو رأسه وقال: أنتم على خطأ؛ فرجال الشرطة لن يجدوا في الكأس أيّ أثر من آثار النيكوتين.

فحملقوا في وجهه بدهشة، وأردف وهو يشير بإصبعه إلى الكأس الملقاة على الأرض: هذه ليست الكأس التي شرب كارترايت محتوياتها.

وأخرج من جيبه كأساً وقال: لقد شرب من هذه الكأس.

المسألة كما ترون غاية في البساطة ولا تحتاج إلاّ لشيء قليل من خفة الحركة، والحيلة التي قمت بها تتطلب شيئاً واحداً، هو توجيه الأنظار إلى ناحية أخرى، فقد كان من الطبيعي -وقد سقط السير تشارلز- أن تتجه إليه جميع الأنظار. لقد حاول كل إنسان هنا أن يقترب منه، ولم يكن هناك من يهتمّ بهيركيول بوارو أو ينظر إليه، فانتهزتُ الفرصة واستبدلتُ كأساً بكأس دون أن يراني أحد. وقد مرت في «وكر الغراب» وفي ملفورت آبي لحظة كالّتي مرت بكم الآن، لحظة اتجهت فيها جميع الأنظار إلى الضحية دون أيّ إنسان آخر من المدعوين، وهذا هو السبب في أن التحليل أثبت خلوّ العصير من كلّ أثر للسمّ.

فصاحت إيغ: ومن ذا الذي استبدل الكأس؟

فنظر إليها بوارو بحدّة وأجاب: هذا ما علينا أن نعرفه.

ثم أجال بصره بين المدعوّين وأردف: لي كلمة أخرى أيها السادة. لقد مثلنا الليلة إحدى المهازل، ولكن هذه المهزلة قد تُمثَّل جدّياً فتصبح مأساة، وهناك ظروف وأحوال يستطيع فيها القاتل أن يضرب ضربة ثالثة. فإذا كان بينكم من يعرف شيئاً عن الجريمتين فأرجو أن يصرّح بما يعرف؛ فالسكوت الآن كثير الخطر لأنه قد يؤدّي إلى جريمة جديدة.

ولكن الجميع لزموا الصمت، فتنهد بوارو وقال: ليكن ما تريدون إذن. لقد حذرتكم.

وانصرف المدعوّون ولم يبق غير إيغ وتشارلز وسوتر. قال الأخير محدّثاً بوارو: هل كانت غايتك الوحيدة أن تجرب نظرية استبدال الكأس؟

- بل كانت لي غاية أخرى.

- ما هي؟

- هي أن أرى ما يبدو على وجه شخص بعينه حين يسقط تشارلز ميتاً.

فسألته إيغ بحدة: ومن هذا الشخص؟

- ذلك سر من أسراري.

- وهل لاحظت وجه الشخص؟

- نعم.

- وماذا رأيت؟

فهز بوارو رأسه ولم يجب، فقال سوتر: ألا تجيبنا؟

- لقد رأيت على وجهه علامات الدهشة القوية.

فهتفت إيغ بحدة: أتعني أنك تعرف القاتل؟

- ربما.

- إذن فأنت تعرف كل شيء.

- لا، الأمر على العكس، أنا لا أعرف شيئاً على الإطلاق، فانا لا أعرف -على سبيل المثال- لماذا قُتل ستيفن بانغتون، وليس في استطاعتي أن أُثبِت شيئاً قبل أن أعرف سبب قتله.

وفي تلك اللحظة سمع القوم طرقاً على الباب ودخل أحد الخدم وفي يده برقيه قدمها إلى بوارو، وما كاد بوارو يفضّها ويقرأ محتوياتها حتى تغيرت ملامح وجهه، وقدم البرقية بدوره

إلى السير كارترايت فقرأ ما فيها بصوت مرتفع: أرجو مقابلتي حالاً لأقدّم إليك معلومات مهمة عن حادث موت بارثلوميو سترينغ. مرغريت رشبريدغر.

فصاح السير كارترايت: مرغريت رشبريدغر؟! إذن فقد صحّ ما ذهبنا إليه من أن لهذه المرأة شأناً في القضية.

- هذه البرقية تزيد الأمور تعقيداً، ولكن يجب أن نسرع لمقابلتها على كل حال.

فسأله سوتر: هل نذهب جميعاً؟

فقالت إيغ: لقد اتفقتُ مع كارترايت على الذهاب إلى غلينغ.

- حسناً، اذهبا إلى غلينغ، وسأذهب مع السيد سوتر لمقابلة السيدة رشبريدغر.

* * *

وصل كارترايت وإيغ إلى غلينغ بعد ظهر اليوم التالي وزارا السيدة ميلراي في بيتها، فألفياها -كما قيل لهما- عليلة ضعيفة مصابة بالفالج ولا تستطيع أن تبرح مقعدها. وقد ألقى عليها كارترايت عدة أسئلة عن القس بانغتون وعائلته، لكنه لم يقف منها على مزيد، فشكرها وانطلق مع إيغ إلى الكنيسة لفحص سجلات المواليد والوفَيات والزواج.

قالت إيغ وهي تقرأ الأسماء في أحد السجلات: يا الله! ما أعجب بعض هذه الأسماء!

- ليس بينها ما هو أعجب من اسمي؟

- كارترايت؟ إنه ليس عجيباً.

- لا أعني اسم كارترايت؛ فهذا هو الاسم الذي اشتهرت به كممثل ثم سُمّيت به رسمياً.

- إذن ما اسمك الحقيقي؟

- اسمي الحقيقي تشارلز ماغ.

وصمت لحظة ثم أردف: لماذا لا تناديني باسمي الشخصي تشارلز فقط، أيْ بحذف لقب السير؟

- سأفعل ذلك.

- لقد فعلت ذلك أمس حين حسبتِ أني متّ.

وتردد لحظة أخرى ثم قال: أصغي إليّ يا إيغ، أنا أكره اللف والدوران وسأتحدث إليك في صراحة. أريد أن أعرف أيّنا تختارين، أنا أم أوليفر ماندرز؟ لقد خُيّل إليّ أمس أنك حزمت أمرك على اختياري.

- هذا صحيح.

فصاح: أيتها المخلوقة العجيبة!

* * *

الفصل الثاني والعشرون

تقابل بوارو وسوتر -قبل رحيلهما- مع الآنسة ليندون سكرتيرة السير بارثلوميو، ووجدا منها رغبة في أن تُدْلي إليهما بكل ما عندها من معلومات. وقد وصل بوارو وسوتر إلى المصحة نحو الظهر، وهناك طلبا مقابلة رئيسة الممرضات، فأسرعت إليهما تلك الأخيرة.

ولاحظ عليها سوتر الاضطراب، فقال لها: أرجو ألا أكون قد غبتُ عن ذاكرتك؛ فقد جئت إلى هنا مرة مع السير كارترايت عقب وفاة السير بارثلوميو.

- نعم، صحيح، أذكر ذلك، وأذكر أن السير كارترايت استفسر يومئذ عن السيدة رشبريدغر المسكينة.

- اسمحي لي أن أقدم إليك صديقي هيركيول بوارو.

ثم قدم إليها برقية السيدة رشبريدغر فدُهشت وقالت: لا أعلم في الواقع كيف أمكن أن تصلكم برقية منها. كل هذا غامض! لا ريب أن هناك شخصاً مخبولاً يفعل كل هذا، وها هم رجال الشرطة ما زالوا يحققون.

- رجال الشرطة؟!

- نعم، فهم هنا منذ الساعة العاشرة.

- وهل نستطيع مقابلة السيدة رشبريدغر مادامت قد طلبت إلينا أن...؟

-السيدة رشبريدغر؟! إذن فأنت لا تعلم ما حدث يا سيد سوتر؟

فسألها بوارو بحدة: ماذا حدث؟

- لقد ماتت هذه السيدة المسكينة.

- ماتت! يا الله! هذا يفسر كل شيء، نعم يفسر كل شيء، كان يجب أن أتوقع ذلك. ولكن كيف ماتت؟

- ماتت بطريقة غامضة؛ فقد تسلمت اليوم -بطريق البريد- علبة حلوى، ولكنها لم تكد تتذوقها حتى سقطت ميتة قبل أن نتمكن من إسعافها؛ فاستدعى الطبيب رجال الشرطة، ودلّ فحص قطعة الحلوى على تسمم طبقتها الخارجية.

- وما نوع السم الذي استُخدم؟

- يعتقد رجال الشرطة أنه النيكوتين.

فغمغم بوارو: النيكوتين مرة أخرى؟ يا لها من ضربة جريئة!

- بل المشكلة أننا جئنا متأخرَين ولن نعلم ما كانت هذه المسكينة تريد أن تبوح لنا به.

فطلب بوارو من رئيسة الممرضات أن يذهبا بهما إلى غرفة رشبريدغر، وهناك رأيا المرأة المسكينة ممددة في الفراش. كانت

صفراء اللون سوداء الشعر تناهز الأربعين من عمرها. قال سوتر: لا بدّ أن بعضهم قد علم أنها تنوي الكلام فقتلها. نعم، لقد قُتلت كي لا تقول ما تعلم.

فأطرق بوارو وتمتم: أو حتى لا تقول ما لا علم لها به. يجب أن تكون هذه آخر ما يُرتكب من جرائم القتل بالنيكوتين.

فسأله سوتر: هل تؤيد هذه الجريمة رأيك في شخصية القاتل؟

- نعم، إلا أن هذه الجريمة دلّتني على شيء آخر، هو أن القاتل أخطر مما كنت أتصور وأننا يجب أن نكون على حذر.

وقد وجدا المفتش كروسفيلد يقوم بالتحقيق في المصحة فذهبا معه إلى مكتب التلغراف، وهناك علما أن الذي حمل إليها البرقية التي أُرسلَت إلى بوارو هو غلام في العاشرة من عمره. وقد بعث سوتر إلى السير كارترايت ببرقية ينبئه فيها بموت السيدة رشبريدغر، ثم استأنف مع بوارو ومفتش الشرطة التحقيق.

وعند نحو الساعة السادسة مساءً قابلوا الغلام الذي حمل صيغة البرقية إلى مكتب التلغراف، وقد قرر الغلام أن رجلاً لا يعرفه صادفه في الطريق وأعطاه البرقية وقال له إن امرأة في المصحة ألقت من نافذتها بصيغة البرقية ملفوفة حول قطعة من النقود، ثم أعطاه شلناً وطلب منه أن ينطلق بصيغة البرقية إلى مكتب التلغراف؛ ففعل. وقد بحث مفتش الشرطة عن الرجل الذي تَحدّث عنه الغلام لكنه لم يقع له على أثر.

وعاد بوارو وسوتر قرب منتصف الليل فقابلهما السير كارترايت، واجتمع الرجال الثلاثة وبدؤوا في تقييم الموقف

على ضوء ذلك الحادث الجديد. قال بوارو: هناك وسيلة واحدة لحلّ غوامض هذه القضية، وهي التفكير. أمّا السفر وسؤال هذا الشخص أو ذاك فذلك ممّا لا يُجدي نفعاً.

- ماذا تنوي أن تفعل إذن؟

- أريد أن أفكر. أطلب ٢٤ ساعة فقط للتفكير.

فهز كارترايت رأسه وقال وهو يبتسم: هل يوصلك التفكير إلى معرفة ما كانت هذه المرأة تحب أن تخبرك به لو بقيَت على قيد الحياة؟

- أعتقد ذلك.

- أتمنى لك التوفيق إذن. آه، نسيت أمراً، أنا قلق بشدة على الآنسة ويلز.

- ماذا أصابها؟

- لقد اختفت، فقد كنت أحس دائماً -كما أنبأتُك- بأنها تعلم أكثر مما ذكرتْ لنا؛ فخطر لي أن أذهب إليها وأحاول استدراجها في الكلام، ولما وصلت إلى بيتها قيل لي إنها رحلت في الصباح ولم تعد، ووجدتُ أهلها في أشد حالات القلق.

فقال بوارو: هذا عجيب؛ فقد حذرتها وحذرت جميع الذين اشتركوا في حفلة العصائر التي أقمتها. ألا ترى أنني طلبت من الموجودين جميعاً أن يصرحوا بما يعلمون؟

- بلى، بلى، ولكن هل تعتقد أنها كذلك قد...

- لي رأي أؤثر أن أحتفظ به الآن.

- كل هذا عجيب! لقد اختفى رئيس الخدم أولاً، ثم اختفت الآنسة ويلز، ولكن تُرى أين ذهب آرليس؟ المدهش أن رجال الشرطة لم يستطيعوا -حتى الآن- أن يقفوا له على أثر.

فقال بوارو: الشرطة يبحثون عن جثته في المكان الصحيح.

- إذن فأنت ترى رأي إيغ، فهل تعتقد أنه مات؟

- لن يُرى آرليس حياً مرة أخرى.

* * *

جاءت إيغ -على غير موعد- في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي لمقابلة بوارو، وما كادت تراه حتى ابتدرته قائلة: يجب أن تهنئني يا سيد بوارو؛ سوف أُدعَى السيدة ماغ قريباً.

فلما نظر إليها بوارو في شيء من الحيرة قصّت عليه ما دار بينها وبين السير كارترايت، ثم أكملت قائلةً: هنئني يا عزيزي وتمنَّ لي حياة سعيدة هنيئة.

فقال بوارو: أتمنى لك سعادة دائمة يا آنسة.

فقالت إيغ: شكراً لك. والآن سأتكلم في الغرض الذي جئت من أجله. أعلم أنني فكرت في قصاصة الورق التي سقطت من حافظة أوراق ماندرز، أعني تلك القصاصة التي التقطتها الآنسة ويلز من الأرض وناولتها له، ويبدو لي إما أن ماندرز يكذب حيث يقول إنه لا يتذكر شيئاً عن وجودها أو أن القصاصة لم توجد على الإطلاق، والتفسير لذلك أن شيئاً ما قد سقط من

ماندرز فادّعت تلك المرأة أنه القصاصة المزعومة.

- ولمَ فعلتْ ذلك يا آنسة؟

- لأنها أرادت أن تتخلص منها فنسبتها إلى ماندرز.

- أتعنين أنها الجانية.

- نعم.

- وما الدافع الذي يحدوها إلى القتل؟

- لا فائدة من هذا السؤال، ولا يمكن أن أرى إلا أنها مختلة الشعور.

- نعم، ولا يجدر بي أن ألقي عليك هذا السؤال، ولكن يجدر بي سؤال نفسي عن سبب اغتيال بانغتون، ويوم أُوفَّق إلى جواب لهذا السؤال فلن يبقى في القضية أدنى غموض.

- إلى الملتقى إذن، وأرجو ألاّ تؤاخذني على إزعاجي لك؛ فأنا ذاهبة لمشاهدة تجربة المسرحية التي وضعتها الآنسة ويلز خصيصاً للممثلة أنجيلا ستكليف، فسوف تُمثَّل غداً لأول مرة.

فصاح بوارو قائلاً: يا إلهي!

- ماذا جرى؟ هل حدث شيء؟

- نعم، لا ريب في ذلك، فقد خطرت لي فكرة رائعة، إني أعمى لا أبصر.

فنظرت إيغ إلى بوارو في دهشة، ولما فطن إلى ما بدا منه ضبط عواطفه وربت على كتفها وقال: إذا كنت تحسبينني مجنوناً

فما أنا كذلك، فقد سمعت ما قلتِ، أنت ذاهبة لمشاهدة تجربة رواية «الكلب الضاحك» التي ستقوم فيها الآنسة ستكليف بالدور الأول. اذهبي ولا تهتمي بما صدر مني من أقوال.

وخرجت إيغ وهي لا تدري ماذا تقول.

* * *

وما إن أصبح بوارو بمفرده حتى أخذ يمشي في الغرفة جيئة وذهاباً وهو يتمتم بعبارات مبهمة وقد لمعت عيناه، وراح يحدث نفسه قائلاً: نعم، هذا يفسّر كل شيء، هذا دافع عجيب! بل هو من أعجب الدوافع، وهو من لون لم أصادف مثله في كل أطوار حياتي، ومع ذلك فهو دافع معقول يتفق مع كافة الظروف والوقائع، لقد نفذت إلى أعماق القضية ولم يبقَ إلا العمل.

وتناول قبعته ومعطفه وهبط إلى الطابق الأرضي بالفندق وطلب إحدى سيارات الأجرة وذكر للسائق عنوان السير كارترايت، وهناك صعد إلى الطابق الثاني، وما لبث أن رأى الآنسة ميلراي تخرج من الشقة التي استأجرها السير كارترايت، فما كادت السكرتيرة تبصره حتى انتفضت وقالت: هذا أنت؟

فأجاب بوارو باسماً: نعم، أنا بعيني.

- أخشى أنك لن تجد السير تشارلز؛ فقد ذهب إلى مسرح البابيلون مع الآنسة ليتون جور.

- ليس السير كارترايت هو من أبحث عنه، بل أبحث عن عصاي التي أظن أني نسيتها هنا.

- فهمت، أرجو أن تضغط زر الجرس فتستقبلك تمبل.

أنا ذاهبة لإدراك القطار؛ فسأسافر إلى مقاطعة كِنت لزيارة والدتي.

وهبطت الدَّرَج مسرعة وهي تحمل في يدها حقيبة صغيرة.

وما كادت الآنسة ميلراي تغيب عن نظر بوارو حتى ترك الغرض الذي قدم من أجله، وهبط الدَّرَج مسرعاً، فلما وصل إلى الباب الخارجي رآها تستقل سيارة، والتفت حوله فشاهد سيارة ثانية فأشار إلى سائقها بالتوقف ثم استقلها وطلب منه أن يتبع السيارة الأولى.

ولم يُدهَش بوارو حين رأى السيارة التي استقلتها السكرتيرة تقف آخر الأمر عند محطة بانغتون، وإن كانت لا تقوم من هذه المحطة خطوط حديدية إلى مقاطعة كِنت، فسار إلى شباك التذاكر وطلب بطاقة إلى لوموث. ووصل القطار إلى محطة لوموث في نحو الساعة الخامسة، وكان الظلام قد أخذ يُرخي سدوله، فتأخر بوارو قليلاً حتى خرجت الآنسة ميلراي، ثم سمع خفير المحطة يجيبها قائلاً: لم نتوقع قدومك يا آنسة ميلراي، هل سيأتي السير تشارلز؟

- لقد جئت لغرض عاجل وسوف أعود في صباح الغد، لا، لا أريد مركبة، شكراً لك، أفضّل السير.

وأخذت الآنسة ميلراي تسير بخفة في الطريق المتعرج بينما يتبعها بوارو عن كثب، فلما وصلت إلى «وكر الغراب» ذهبت إلى الباب الخارجي وفتحته بمفتاح كانت تحمله في حقيبتها، ثم دخلت فتركت الباب مفتوحاً خلفها. وما لبثت أن عادت بعد

نحو دقيقتين وهي تحمل في يدها مفتاحاً يملؤه الصدأ ومصباحاً كهربائياً، فتراجع بوارو واختبأ في ظل شجرة وأخذ يراقبها.

وراحت الآنسة ميلراي تتقدم خلف المنزل في طريق مرتفع حتى وصلت إلى كوخ صغير فتحت بابه بمفتاح كان معها، ونفذت إلى الداخل مستعينة بضوء المصباح الكهربائي. وأسرع بوارو خلفها ثم انسلّ إلى الداخل في خفة وهدوء، فرأى على ضوء المصباح بعض الأنابيب الزجاجية وموقداً غازياً وأجهزة مختلفة. فتناولت الآنسة ميلراي قضيباً من الحديد ورفعته فوق الأنابيب الزجاجية وهمّت بتحطيمها.

وفجأة أحست بيد قبضت على ذراعها، فالتفتت حولها في ذعر فنظر إليها بوارو وهو يقول: لا يجب أن تفعلي ذلك يا آنسة ميلراي؛ فما تحاولين تدميره هو الدليل.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

جلس بوارو في مقعد وثير تحت ضوء المصباح، بينما جلس كارترايت وسوتر وإيغ ينصتون إليه وهو يتحدث بصوت الحالم وكأنه يخاطب الفضاء. قال بوارو:

مهمة رجل التحري تنحصر في ترتيب وقائع الجريمة، ولهذا يتعيّن عليه بناء الحقائق بعضها فوق بعض كما يبني الإنسان منزلاً من ورق اللعب، فإذا وجد هذه الحقائق لا تنسجم ولا تأتلف فعليه أن يعيد بناءها من جديد، وإلاّ تقوّض البناء وانهار من أساسه. أنا أتحدث الآن عن مقتل ستيفن بانغتون الذي حدث في أغسطس الماضي. في تلك الليلة المعهودة كان السير كارترايت أول من أثار موضوع قتل هذا الرجل، وأنا لم أتفق معه في هذا الرأي؛ فأنا لم أشأ أن أصدق أن رجلاً كهذا يمكن أن يموت قتلاً، أو أنه يمكن دسّ السم لشخص معين في ظروف كظروف تلك الليلة.

والآن أقرر معكم صوابه وخطئي، وسبب هذا الخطأ أني كنت أنظر إلى الجريمة نظرة غير واقعية، ولم تتغير نظرتي وأقترب من الحقيقة إلا منذ أربع وعشرين ساعة فقط، ولا ريب أن مقتل ستيفن بانغتون يبدو في ضوء هذا التغيير معقولاً

وممكناً. لكنني سأترك هذه النقطة مؤقتاً وأنتقل بكم خطوة خطوة في الطريق الذي سلكته بنفسي؛ فأصف وفاة بانغتون بأنها الفصل الأول من هذه المأساة التي شملتنا، وقد أُسدلَ الستار على هذا الفصل بمغادرتنا جميعاً «وكر الغراب».

وبدأ الفصل الثاني من المأساة في مونت كارلو حينما أطْلعني السيد سوتر على النبذة التي وردت في الصحف عن وفاة السير بارثلوميو سترينغ، فاتّضح لي على الفور أن تشارلز كان مصيباً فيما ذهب إليه وأني كنت مخطئاً، وأن كلا من بانغتون وسترينغ قد لقي حتفه قتلاً، وأن الحادثتين حلقتان في جريمة واحدة. ثم وقعت أخيراً جريمة ثالثة أضيفَت إلى هذه السلسلة، وهي مقتل السيدة دي رشبريدغر. فلم يكن أمامنا إذن إلا التماس نظرية معقولة تربط هذه الحوادث الثلاث معاً. وباعتبار أن الجرائم الثلاث معاً لم يرتكبها سوى شخص واحد، لغرض خاص يُضمره في نفسه ويعود عليه وحده بالفائدة.

المعضلة التي حيرتني هي حدوث مقتل بارثلوميو بعد مقتل بانغتون. ولو نظر الإنسان إلى الجرائم الثلاث دون التقيّد بالزمان والمكان لرأى الدلائل تشير إلى أن مقتل السير بارثلوميو هو الجناية الرئيسية، وأن الجريمتين الأخريين متفرعتان عنها، أعني أنهما وقعتا بسبب صلة هذين الشخصين بالسير بارثلوميو. على أنه لا يمكن -كما قررت ذلك من قبل- أن يجد المرء الجريمة مهيأة له على النحو الذي يشتهي؛ فقد قُتل بانغتون أولاً ثم تلاه بارثلوميو بعد فترة من الزمن.

وإذن فقد تبدّى من ذلك أنه لا بد أن تكون الجريمة الثانية قد تفرّعت عن الأولى، وأنه يتعين علينا أن نحقق في الجريمة

الأولى حتى ندرك الغرض الرئيسي الذي يربطهما معاً. والحق أنه خطر لي احتمال وجود خطأ والتباس في هذه الجريمة المتعددة الجوانب؛ فذهبت أسائل نفسي: أيُحتمل أن يكون السير بارثلوميو قد أُريدَ به أن يكون الضحية الوحيدة وأن السيد بانغتون قد دُسّ له السم بالخطأ؟ على أني لم ألبث أن نبذت هذا الرأي؛ فالشخص الذي له أيّ اتصال وثيق بالسير بارثلوميو يعرف -بلا ريب- أنه لا يميل إلى تناول الشراب. ثم خطر لي رأي آخر، هل يمكن أن يكون بانغتون قد سُمّم خطأً بدلاً من أحد المدعوّين؟ ولما لم أجد دليلاً يؤيد هذا الرأي ألفيتني مسوقاً إلى ذلك الرأي القائل إن مقتل ستيفن بانغتون قد دُبّر عمداً.

يجب في تحقيق القضايا أن يأخذ الباحث أولاً بأبسط الآراء وأشدها وضوحاً، فإذا سلمنا جدلاً بأن بانغتون قد شرب كأساً مسمومة من العصير، فمن الذي أُتيحَ له تسميم الشراب؟ خطر لي لأول وهلة أن الشخصين الوحيدين اللذين يمكن أن يفعلا ذلك واللذين تداولا العصير هما السير كارترايت نفسه والوصيفة تمبل، على أنه إذا صحّ -نظرياً- أن أحدهما قد استطاع أن يدسّ السم في الكأس، فإن الفرصة لم تتهيأ لهما كليهما لأن يضعا تلك الكأس المعيَّنة في يد بانغتون.

كانت الوصيفة تستطيع أن تفعل ذلك بحمل صينية الكؤوس في وضع معيَّن حين تقدّم له أحد الكؤوس، وكان في وسع كارترايت أن يقدّم الكأس المسمّمة إلى بانغتون. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، وكانت المصادفة -والمصادفة وحدها- هي التي وضعت الكأس المذكورة في يد بانغتون. كان السير كارترايت وتمبل هما اللذين تداولا العصير، فهل كان أحدها موجوداً في

قصر ميلفورت آبي عند وقوع الجريمة الثانية؟ الجواب لا. فمن ذا الذي أُتيحَ له أن يعبث بكأس النبيذ الذي تناوله السير بارثلوميو إذن؟ شخصان فقط، هما رئيس الخدم آرليس والوصيفة. على أنه لم يكن ممكناً في تلك الحالة أن نتجاوز عن احتمال معيَّن، وهو أن أي واحد من المدعوّين لدى السير بارثلوميو كان في استطاعته التسلل إلى غرفة الطعام ودس السم في كأس النبيذ.

ولما لحقت بكم في «وكر الغراب» ألفيتكم قد أعددتم قائمة بأسماء الأشخاص الذين كانوا حاضرين في «وكر الغراب» وفي قصر ميلفورت آبي. ويجوز لي الآن أن أقرر أني قد استبعدت على الفور الأسماء الأربعة التي كانت على رأس تلك القائمة، وهي أسماء الكابتن ديكرس وزوجته والآنسة ستكليف والآنسة ويلز؛ فقد كان يستحيل على أيّ من هؤلاء الأربعة أن يدري سلفاً أنه سوف يلتقي بالقس بانغتون في وليمة العشاء، كما أن استخدام النيكوتين في القتل يتطلب خطة مرسومة بإمعان لا خطة توضع عفو الساعة ووقت الحاجة.

وكان في القائمة ثلاثة أسماء أخرى هي أسماء الليدي ماري ليتون جور والآنسة جور والسيد أوليفر ماندرز، وكان من الجائز أن يُنظر إلى أحد هؤلاء الثلاثة على أنه الفاعل؛ فقد كانوا من أهل لوموث ومن الممكن أن تتوفر لهم دوافع خاصة تحملهم على التخلص من بانغتون. على أني من ناحية أخرى لم أستطع أن أهتدي إلى دليل -مهما كان نوعه- يثبت أن أحداً من هؤلاء الثلاثة قد أتى حقاً هذه الفعلة.

وأحسب أن السيد سوتر قد سار في بحثه على نحو ما سرتُ، وركّز شكوكه حول أوليفر ماندرز. وفي وسعي أن أقرر

أن ماندرز كان في مقدمة المشتبه فيهم؛ فقد بدت منه تصرفات تدلّ على ضيق الصدر في وليمة «وكر الغراب»، كما أنه شاب له نظرات في الحياة مصبوغة بالشذوذ بسبب متاعبه العائلية الخاصة، كما وقعت بينه وبين بانغتون مشادة دلّت على أنه يخفي له في صدره شيئاً من الضغينة والخصام، ثم تلا ذلك وصوله إلى قصر ميلفورت آبي في ظروف غريبة، ثم كانت شهادة الآنسة ويلز عن وجود قصاصة الجريدة التي تتضمن نبذة عن التسمّم بالنيكوتين في حيازته. كان ماندرز إذن جديراً بوضع اسمه على رأس قائمة السبعة المشتبه فيهم.

لكني لم ألبث أن خامرني إحساس عجيب؛ فقد رأيت أنه مما يتمشّى مع المنطق والعقل أن يكون مرتكب الجريمتين شخصاً حضر كلتا المناسبتين، وبعبارة أخرى أن يكون من بين الأسماء السبعة المدوَّنة في تلك القائمة. على أني رأيت بعد ذلك أن هذا الاعتقاد قد أُريدَ به أن يكون مناورة مقصودة للتضليل، فالمجرم الذكي يدرك أن وجود اسمه بين تلك الأسماء السبعة يجعله عرضة للاشتباه فيه، ولذلك لا بد أن يفكر في استبعاد اسمه من تلك القائمة حتى يحوّل الأنظار عنه، وبعبارة أخرى كان قاتل بانغتون والسير بارثلوميو موجوداً في كلتا المناسبتين، لكنه لم يكن في الظاهر كذلك. فمَن الذين حضروا في المناسبة الأولى ولم يحضروا في الثانية؟ هم السير تشارلز كارترايت والسيد سوتر والآنسة ميلراي والسيدة بانغتون. كان في مقدور أحد هؤلاء الأربعة أن يحضر في الحادث الثاني خِفْية، فأما السير كارترايت والسيد سوتر فقد كانا في جنوب فرنسا، وأما الآنسة ميلراي فكانت في لندن، وأما السيدة بانغتون فكانت في لوموث. ومِن هؤلاء الأربعة كانت الآنسة ميلراي تستطيع أن تحضر إلى

قصر ميلفورت آبي دون أن يعرفها أحد من المجتمعين. لكن الآنسة ميلراي ذات سحنة خاصة لا يمكن تبديلها أو نسيانها؛ فمن المستحيل إذن أن تكون قد حضرت إلى القصر دون أن يعرفها أحد، ومثل هذا القول ينطبق على السيدة بانغتون.

وبمناسبة الكلام في هذه الناحية، هل كان في مقدور السير تشارلز أو السيد سوتر أن يحضر إلى قصر ميلفورت آبي دون أن يعرفه أحد؟ هذا غير محتمَل فيما يتعلق بالسيد سوتر. لكن إذا عرضنا إلى السير تشارلز فإنما نعرض إلى مسألة تختلف اختلافاً بيّناً؛ فهو ممثل قدّم مئات الأدوار، ولكن ما الدور الذي يستطيع تمثيله؟ وهنا رأيت أن أستعرض دور آرليس رئيس الخدم، ولا ريب أن آرليس هذا هو شخصية غامضة؛ فهو شخص يظهر فجأة على مسرح الحوادث قبل وقوع الجريمة بأسبوعين ثم يختفي بنجاح تام على إثر وقوعها. فما سر نجاح آرليس على هذا النحو؟ السر هو أنه شخصية لا وجود لها، شخصية غير حقيقية.

لكن أيُحتمل هذا؟ كانت خادمات قصر ميلفورت آبي يعرفن السير كارترايت، وهو صديق حميم للسيد بارثلوميو، على أن موضوع الخادمات يمكن تذليله بسهولة لأنهنّ إن اكتشفن حقيقة آرليس فلن يكون في ذلك أدنى ضَير من جانبهن، ويمكن اعتبار الحادث ضرباً من الدعابة والمزاح لا أقلّ ولا أكثر. على أنه -من ناحية أخرى- إذا مر أسبوعان دون أن يقوم أدنى شك في تلك الشخصية فقد تأكد أن المسألة هيّنة مأمونة العاقبة. فلم ألبث أن تذكّرت أقوال الخادمات عن رئيس الخدم، فقد قيل عنه إنه كان يتصرف تصرف الرجل المهذب، كما قررت الوصيفة أليس أنه كان يؤدي عمله على نحو يغاير ما هو معروف.

والحق أني ما كدت أُلِم بمضمون القول الأخير حتى وجدت فيه تأييداً لنظريتي، وهي أن السير تشارلز استطاع التنكر وخلق شخصية جديدة هي شخصية رئيس الخدم. ولكن ما يُقال عن الخادمات لا يمكن أن يصح عند السير بارثلوميو، ومن العسير أن نصدق أنه يمكن أن تجوز عليه حيلة صديقه الحميم، ولا بدّ إذن أنه عرف بحقيقة تلك الشخصية المنتحَلة. فهل لدينا دليل ما على صحة هذا الاستنتاج؟

هذا الدليل يبدو في ذلك التبسط من السير بارثلوميو نحو رئيس خدمه على نحو يغاير ما كان معهوداً، ومن العسير تعليل ذلك التبسّط إلا إذا كان رئيس الخدم هو السير تشارلز نفسه. نعم، لا ريب في أن السير بارثلوميو كان ينظر إلى الأمر بهذه العين، وقد رأى أن قيام صديقه بدور آرليس هو دعابة، وربما كان رهاناً لا يُقصَد منه غير التفكّه على حساب الضيوف.

ومن هنا نشأت تلك الملاحظة التي أبداها عن إعداده مفاجأة معيَّنة، وما بدا منه من المرح. وكذلك يمكن القول بأنه لم يكن ثمة أدنى خطر من اكتشاف أحد الضيوف لحقيقة شخصية السير تشارلز؛ فقد كان يمكن تعليلها بأنها لون من التفكّه والدعابة. ولكن أحداً لم يلتفت إلى رئيس الخدم ذي القامة اليسيرة الانحناء والشعر المرسَل على عارضيه والشامة الموشومة فوق معصمه. والحق أنه لم يلاحظ أحد تلك الشامة غير الآنسة ويلز النافذة البصر، وسنتحدث عنها بعد قليل.

ماذا حدث بعد ذلك؟ تُوفّي السير بارثلوميو، فلم تُنسَب الوفاة هذه المرة لأسباب طبيعية. وجاء رجال الشرطة فاستجوبوا آرليس والآخرين، ثم هرب آرليس في تلك الليلة عن طريق الممر

السري واستعاد شخصيته، وراح بعد يومين يتجول في مونت كارلو وهو مستعد لإبداء ذهوله وارتياعه لنبأ وفاة صديقه. وأرجو ألاّ يغرب عنكم أن هذا كله لم يكن غير نظرية اكتشفتها.

ثم ما شأن تلك الرسالة المزعومة التي تلقّاها ماندرز؟ لم يتوفر عندي الدليل المادّي على صحتها، ولكن كل شيء حدث بعد ذلك كان ينهض دليلاً عليها. ولعلكم تتساءلون عن رسائل التهديد التي وُجدت في غرفة آرليس، ولكن يجب أن تذكروا أن كارترايت هو الذي طلب من السير بارثلوميو يسأله أن يصطنع حادثة. هل كان هناك ما هو أيسر من أن يتولى كارترايت نفسه تحرير الرسالة مذيَّلة باسم السير بارثلوميو؟ وإذا لم يكن ماندرز قد قام بتمزيق الرسالة، فقد كان في مقدور آرليس أن يفعل هذه وهو ينظف ثياب الشاب، وكان ميسوراً على نفس النحو أن يدس قصاصة الجريدة في حافظة أوراق أوليفر ماندرز. نأتي الآن إلى الضحية الثالثة، السيدة رشبريدغر. متى سمعنا بهذا الاسم لأول مرة؟ سمعنا به على إثر الدعابة التي تفوّه بها السير بارثلوميو لآرليس، فلم يكن هناك بُدّ من أن يعمل السير تشارلز مهما كلفه الأمر على تحويل الأنظار عن تبسّط السير بارثلوميو مع رئيس خدمه؛ فراح يسأل الخادمات -حين ذهب مع سوتر إلى قصر ميلفورت آبي- عن مضمون تلك الرسالة التي قام رئيس الخدم بتبليغها، ولما قيل له إنها تتصل بتلك المريضة التي تُعالَج في مصحّة الطبيب راح يركز كل جهده لتحويل الأنظار إلى تلك المرأة المجهولة وإبعادها عن رئيس الخدم، فيذهب إلى المصحة ويستجوب رئيسة الممرضات. وهكذا استغلّ تلك المرأة المسكينة وأقحمها في القضية، ثم فتك بها أخيراً زيادةً في التضليل والتعقيد.

ويجدر بنا الآن أن نستعرض الدور الذي قامت به الآنسة ويلز في تلك المأساة. إذا كانت الآنسة ويلز قد حُرمَت نعمة الجمال فهي لم تُحرَم قوة الملاحظة والذكاء، ولا أعلم إن كانت الآنسة ويلز قد لاحظت على رئيس الخدم شيئاً غير عادي أو لم تلاحظ، ولكني أعتقد أنها كانت المخلوقة الوحيدة التي أعارته قسطاً من ملاحظتها وهُم قعود حول المائدة. وقد بعثها فضولها وحبها للاستطلاع إلى الدخول في صباح اليوم التالي لوقوع الجريمة إلى غرفة ديكرس والذهاب إلى جناح الخدم، وكانت هي المخلوقة الوحيدة التي سببت للسير كارترايت بعض القلق، وهذا هو السر في اهتمامه بجرّ قدميها وإثارة الغبار حولها. لقد علم منها في تلك المقابلة التي تمّت بينهما أنها لاحظت وجود الشامة فوق معصمه في أثناء طوافه بصينية الطعام على المدعوّين، فلم يخطر للآنسة ويلز أول الأمر أن آرليس هو كارترايت، ولكن خطر لها فجأة حينما كان كارترايت يتحدث معها في أثناء المقابلة التي تمت بينهما أن كارترايت هو آرليس، ولذلك طلبت إليه أن يناولها الصينية النحاسية. لم تكن تهتم بالوقوف على حقيقة الشامة ولا بكونها في اليد اليمنى أو اليسرى، وإنما أرادت أن تنظر إلى حركات يديه وهو يقدم إليها الصينية وتقارن بينها وبين حركات يدَي آرليس. ومن هنا اتضحت لها الحقيقة فجأة. غير أنها امرأة غريبة الطباع؛ فقد كانت تهتم بجمع المعلومات من أجل لذّتها الخاصة، وفوق ذلك فهي لم تكن موقنة من أن السير تشارلز قد اغتال صديقه. نعم، لقد تنكّر في زيّ رئيس الخدم، لكن ليس معنى ذلك بالضرورة أنه هو القاتل.

إذن فقد احتفظت الآنسة ويلز بتلك المعلومات لنفسها، لكن كارترايت كان يشعر بالقلق، فلم يسترح إلى نظرة الارتياح

المشوبة بالخبث التي طالعها على وجهها حينما غادر غرفتها؛ فهي تعرف شيئاً بلا ريب، ولكن ما هو؟ لا بدّ أن يكون الأمر متصلاً بآرليس، إذن فلا بدّ من قيامه بعمل يحوّل عنه الأنظار. وأعتقد أنه استيقظ مبكراً في صباح اليوم الذي دعوت فيه إلى الوليمة وذهب إلى يوركشير متنكراً في زي رجل خشن المظهر فسلّم إشارة برقية إلى صبيّ صغير كي يتولّى إرسالها، ثم رجع إلى لندن لتمثيل الدور الذي قام به في المأساة الصغيرة التي رسمتُها. على أنه فعل شيئاً آخر؛ فقد أرسل صندوقاً من الحلوى إلى امرأة لم يشاهدها مرة واحدة في حياته ولا يعرف عنها شيئاً.

وأنتم تعرفون ما حدث في تلك الليلة، فقد استنتجتُ من قلق كارترايت أن الآنسة ويلز أصبحت تخامرها شكوك معيَّنة. ولما قام كارترايت بتمثيل مشهد وفاته رحت أراقب وجه الآنسة ويلز فشاهدت آيات الدهشة تبدو عليها، ومن هنا أيقنت أن الآنسة ويلز كانت ترتاب بشكل قاطع في أن كارترايت هو الجاني. ولما خُيّل إليها أنه يموت مسموماً كصاحبَيه السابقَين ظنّت أنها أخطأت في استنتاجاتها.

لكن إذا كانت الآنسة ويلز ترتاب حقاً في كارترايت فلا ريب أنها باتت في خطر؛ فالرجل الذي ارتكب جريمة القتل مرتين لا يتردد في أن يقتل مرة أخرى، ولذلك حذرتكم تلك الليلة، ثم اتصلت بالآنسة ويلز هاتفياً فلم تلبث أن غادرت منزلها فجأة في اليوم التالي بإيعاز منّي، ومنذ ذلك الوقت وهي تقيم هنا في هذا الفندق.

ولكي أدلّل على بُعد نظري في شأن الآنسة ويلز أذكر لكم

أن كارترايت ذهب إلى منزلها عقب عودته من غلينغ، إلاّ أنه تأخر فوجد أن العصفور قد طار من القفص. وفي تلك الأثناء كان كارترايت يعتقد أن خطته قد نجحت فيما يتصل بالسيدة رشبريدغر، لكنني لم أُخدع بهذه المناورة؛ فقد ذكر لي السيد سوتر أنها قُتلَت حتى لا تُدلي بما لديها من معلومات، فقلت له إنها قد تكون قُتلَت لأنها لا تعرف شيئاً؛ فدُهش من ذلك القول، ولكن كان يجب عليه إذ ذاك أن يدرك الحقيقة، فقد قُتلَت السيدة رشبريدغر لأنه لم يكن لديها -في الواقع- ما تُفضي به، ولأنه لم يكن لها أدنى اتصال بالجريمة، فقط أراد القاتل زيادة تعقيد القضية وصرف الأنظار عن نفسه. على أن كارترايت قد ارتكب غلطة صبيانية جسيمة في تلك الليلة التي أصاب فيها النصر بالقضاء على تلك المرأة البريئة؛ فقد أرسل إليّ البرقية بعنوان في فندق ريتز، لكن السيدة رشبريدغر لم تسمع باسمي مقترناً بهذه القضية، وأيضاً لم يعلم به أحد في المنطقة التي توجد بها المصحة. هكذا ترون أنها غلطة تورط فيها كارترايت تورّطاً خطيراً.

توصلتُ إلى شخصية القاتل حتى هذه المرحلة إلا أني لم أعرف الدافع إلى الجريمة الأصلية؛ فجعلت أفكر وأيقنت مرة أخرى أن وفاة السير بارثلوميو سترينغ هي الجريمة الرئيسية، فما الدافع الذي يحمله على القضاء صديقه؟ هل أستطيع أن أعرف هذا الدافع؟ رأيت هذا ممكناً.

وهنا ساد صمت عميق، ونهض السير كارترايت إلى ناحية الموقد ووقف واضعاً يديه في جيبَيه وجعل ينظر إلى بوارو في ترفّع وازدراء وقال: أنت خصب الخيال يا سيد بوارو، وأنا لستُ في حاجة إلى القول بأن هذا الكلام كله لغو وسخف. ولكن

استمرّ في حديثك؛ فأنا يهمّني أن أعرف الدافع الذي تزعم أنه حملني على اغتيال أحب أصدقائي إليّ.

فنظر بوارو إلى وجه السير كارترايت ثم أردف قائلاً: هناك مثل مأثور يقول «ابحث عن المرأة»، والدافع إلى الجريمة ينحصر في هيامك بالآنسة ليتون جور هياماً قوياً، ومع أنك أدركت أن الفتاة تحبك وتُمجّد شخصيتك فأنت لم تُقْدم على الزواج بها، فما السبب؟ لا بد أن هناك عقبة تحول دون هذا الزواج، فما تلك العقبة؟ العقبة هي وجود زوجة لك. ولَمّا كان الناس لا يعرفون عن زواجك شيئاً فلا بد أنك كنت متزوجاً في شبابك قبل أن تشتهر كممثل. ولكن ما قصة تلك الزوجة؟ وإذا كانت حية فلماذا لم يسمع بها أحد؟ وإذا كانت تعيش منفصلة عنك فقد كان يمكنك فصم العلاقة بالطلاق. على أن ثمة حالتين لا يُباح فيهما الطلاق، وهما سجن الزوجة أو وجودها في أحد مستشفيات الأمراض العقلية. فإذا كانت زوجتك قد سُجنت أو أُرسلت إلى أحد المستشفيات الأمراض العقلية منذ سنوات فقد لا يُوجَد من يعلم بهذه الحقيقة، وإذا لم يوجد من يعلم بذلك فقد يُتاح لك أن تتزوج الآنسة ليتون جور دون أن تُطلِعها على الحقيقة. لكن إذا فُرض أن صديقاً قديماً يعرف ماضي حياتك فكيف يكون الحال؟ السير بارثلوميو رجل شريف وهو لا يستحلّ لنفسه السكوت على خداعك فتاة بريئة وتغريرك بها، إذن فلا بدّ من القضاء عليه قبل أن يُتاح لك الاقتران بالآنسة ليتون جور.

فضحك كارترايت وقال: وهل كان بانغتون يعرف ذلك السر القديم أيضاً؟

- خُيل إليّ ذلك في أول الأمر، ولكني لم ألبث أن رأيت أنه

لا يوجد ما يؤيد ذلك الرأي، وفوق ذلك فقد بقيَت أمامي تلك العقبة التي واجهتني؛ وهي أنه إذا فُرض أنك قد دسست السمّ في كأس العصير فإنه لم يكن بوسعك أن تستوثق من وصولها إلى الشخص المعيَّن الذي تريد قتله. على أن كلمةً عرضية من الآنسة ليتون جور بددت ذلك الظلام الذي كان يحوطني، فستيفن بانغتون لم يكن مقصوداً بتلك الكأس المسمومة وإنما قُصد بها أيّ شخص من الموجودين إذ ذاك، ما عدا ثلاثة منهم وهم الآنسة ليتون جور التي حرصتَ على أن تناولها الكأس بيدك، ثم أنت، والسير بارثلوميو ستريغ لِما تعرف من نفوره من هذه الأشربة.

فصاح سوتر: هذا غير معقول.

فنظر إليه بوارو نظرة الظافر وقال: بل هو صحيح، وهو أعجب دافع سمعت به في حياتي؛ فستيفن بانغتون لم يُقتَل إلا على سبيل التجربة. لقد كان تشارلز ممثلاً، وكما يقوم الممثل بتجربة تمثيل المسرحية قبل عرضها على الجمهور فقد قتل بانغتون قبل أن ينفذ غرضه في السير بارثلوميو! والحقّ أنه لن تحوم حوله أدنى شبهة؛ فهو لا ينتفع بموت أحد الموجودين. وقد نجحت التجربة ومات بانغتون دون أن تثير وفاته أدنى شبهة. وقد حاول أن يثير اشتباهنا، وكان في ذلك جريئاً إلى أبعد حدود الجرأة فتكلّم عن احتمال وفاة بانغتون قتلاً، إلا أننا رفضنا أن نصدّقه، كما لم يفطن أحداً منا إلى أنه استبدل الكأس المسمومة بأخرى. على أن الأمور تغيّرت في الجريمة الثانية؛ فقد استُدعي أحد الأطباء فاشتبه في حدوث الوفاة بالسمّ، وكان من مصلحته -إزاء ذلك- أن يضرب على النغمة القائلة بأن بانغتون قد مات

مسموماً كذلك؛ فلا بدّ أن يظنّ الناس أن مقتل السير بارثلوميو متفرع عن الجريمة الأولى فتتحول الأنظار إلى التماس سبب لاغتيال القسّ لا إلى السبب في القضاء على السير بارثلوميو. على أن ثمة مسألة واحدة لم يُوفَّق كارترايت إلى التحوّط لها؛ فقد كانت الآنسة ميلراي تعلم أن كارترايت يقوم بتجارب كيميائية في الكوخ الخشبي الكائن في الحديقة وكانت بعض الزهور تختفي دون سبب مفهوم. فلما قرأت في الصحف أن بانغتون مات مسموماً بالنيكوتين أدركت بفطنتها أن السير كارترايت كان يستخرج مادة النيكوتينِ النقية من محلول الزهور. وكانت الآنسة ميلراي إذ ذاك بين عاملَين، عامل الحزن على ما أصاب بانغتون الذي كانت تعرفه منذ طفولتها وعامل الوفاء لسيدها؛ فلم تلبث أن قررت آخر الأمر أن تُتلِف الأجهزة الكيميائية (وهو ما لم يفكر فيه كارترايت لفرط اعتداده بنفسه)، فلما ذهبت الآنسة ميلراي إلى كورنوول تبعتُها ومنعتها من إتلافها.

وهنا ضحك السير كارترايت مرة أخرى وقال بازدراء: هل تحصر دليل اتهامك في جهاز كيميائي قديم؟

فأجاب بوارو: لا؛ فهناك جواز سفرك الذي يبيّن تاريخ عودتك إلى إنكلترا لقتل صديقك ثم مغادرتك إياها إلى فرنسا، كما أن هناك في مستشفى الأمراض العقلية بمقاطعة هارفرتون سيدة تدعى غلاديس ماري ماغ، وهذه السيدة هي زوجتك الأولى.

* * *

كانت إيغ في أثناء ذلك صامتة كالتمثال، وما لبثت أن أرسلت أنيناً عميقاً؛ فتحول إليها كارترايت وقال: أتصدقين

حرفاً من هذه القصة الخرافية يا إيغ؟

فنهضت الفتاة وسارت إلى بوارو وركعت أمامه وابتهلت إليه قائلة: أهذا صحيح؟ أهذا صحيح؟

فقال بوارو وهو يضع يديه على كتفيها برفق: نعم، كل هذا صحيح يا آنستي.

فساد الصمت، ولم يقطعه غير تنهدات إيغ وهي تبكي. وظهرت على وجه كارترايت علامات الشيخوخة فجأة، وما لبث أن تحول إلى بوارو وقال في نبرات تقطر حقداً: عليك اللعنة!

وغادر الغرفة سريعاً؛ فوثب سوتر قائلاً: سيحاول الفرار.

فهز بوارو رأسه وقال: لا، لقد مثّل مسرحية، وسوف يختار الآن الطريق الأقصر لإسدال الستار.

في تلك اللحظة فُتح الباب ودخل منه أوليفر ماندرز، فقال بوارو: انظري يا آنسة، هو ذا صديق جاء ليراك.

فنهضت الفتاة وهي تترنح وهتفت بالشاب: أوليفر، اذهب بي إلى أمي، اذهب بي إلى أمي.

فلف ذراعه حول خصرها وهو يقول: بالطبع يا عزيزتي، سأذهب بك، تعالَي.

وفي تلك اللحظة سُمع صوت طلق ناري خارج الغرفة.

* * *

(تمت)